تاريخ اللغات السامية

تأليف

جودة الطحلاوي

الكتاب:تاريخ اللغات السامية

الكاتب:جودة الطحلاوي

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

الطحلاوي، جودة
تاريخ اللغات السامية / جودة الطحلاوي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٣٨ ص، ١٨*٢١سم.
الترقيم الدولى: ٣ – ٣٠ – ٦٨٢٣– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان   رقم الإيداع : ١٠٠٧٠ / ٢٠٢٠

تاريخ اللغات السامية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء

إلى الزهرة التي هي عزاء لي عن تلك الجميلة الأرجة، والكوكب الساطع الذي أنار مسالك حياتي ..إلى ولدي عبد العظيم جوده أهدي هذا الكتاب.

جوده

تمهيد

قد أتى على الإنسان حين من الدهر كانت معارفه العقلية كحاجاته المادية كلتاهما محصورة لا تتعدى النظرات السطحية في جمال الطبيعة وتنسيق الكون وإشباع النفس بما لذ وطاب من نهم الحواس ونزوعها للخير العاجل ،كما نراه ونلمسه في حياة الطفولة التي هي (المرحلة الطبيعية الأولى للإنسانية) فكانت تلكم النظرات أقرب إلى البساطة والسذاجة مما نتصوره نحن من مطامع النفس العقلية وإرواء غلتها بمختلف العلوم والمعارف.

ولقد كان لفظ العالم في تلك العصور الأولى من حياة الإنسانية يطلق على ذلك الرجل الذي يعلم ما تعارف عليه أهل عصره من الضروري ، لحفظ الحياة فلا يتجاوز في المعلومات العقلية ما هداهم إليه مرور الزمن واستعدادهم الفطري بحكم كونهم مفكرين بطبيعتهم.

هذا إلى بساطة الموضوعات وحصرها في ناحية هي إلى المحسوس المشاهد أقرب منها إلى المعنوي المعقول.

ثم درجوا على ذلك وكل معلوماتهم كلمات يلقيها الرجل على أصحابه في الجلسة والجلستين، فلم تك تلك المعارف علوماً لها قواعدها ونظمها، وإنما هي متفرقات من شذرات النظر والإلهام، لم يعن بتدوينها من الأمم إلا من كانت أرسخ قدماً في الحضارة كالمصريين والبابليين وغيرها من

أمم الشرق، وما زالوا على هذه الحال ينتهجون سنة من تقدمهم حتى ظهرت الحركة اليونانية في العلوم والمعارف حوالي القرن السادس قبل الميلاد، فهي أول أمة عنيت بضبط المعلومات وحصر طوائف منها تحت علم خاص له قوانينه وحدوده ثم استفاضوا في هذه المباحث الجليلة، ورائدهم الفكر الحر من أغلال الأساطير والأوهام حتى كونوا أثراً خالداً للإنسانية في المعارف العامة والآداب، أصبح فيما بعد المنبع الفياض والمنهل العذب الذي رويت منه جميع الأمم، والقبس الوضاء الذي اهتدت بهديه كبار الحضارات الغابرة والحاضرة.

ومع تنوع معارفهم فإنك تستطيع بعد الدراسة الدقيقة ن تجملها في مواضع أربعة عامة هي (١) الفلسفة (٢) الطب (٣) التشريع (٤) اللاهوت، ثم كان العالم منهم لا يعجزه أن يدركها جميعها ويحيط علماً بدقائقها وأسرارها فكنت تجد الحكيم الفيلسوف، طبيباً نطاسياً وفقيهاً طبناً وحبراً ربانياً، كما تلمح ذلك واضحاً في أرسطو وكتبه التي هي دائرة معارف عامة للعهد القديم من الإنسانية.

وبينما الأمة اليونانية وادعة في نعيمها الخيالي اللذيذ، إذا بها ترى شبح الرومان الوحشي يصحبهم في خشونة لباسه وجفاف معاملته، فقد كان يحتقرهم ويرميهم بأنهم قوم خائلون واهمون، ثم جعل يضيق عليهم الحرية الفكرية حتى فروا يهيمون على وجوههم في فيافي المعمور.

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى　　　وفيها لمن خـاف القلى متـــحول

فانفصل كثير من علمائهم عن اليونان ونزلوا في بلاد آرام على

سواحل الفرات الشمالية حيث (الرها – الرقة) وخران وغيرها من مراكز العلم والأدب فامتزج بهم كثير من الآراميين وأخذوا عنهم علومهم ومعارفهم فكانوا بذلك ممهدين لعقول الآراميين ومفتقين لأكمامها الغضة الزاهرة حتى كانت علي أتم الاستعداد لتقبل المسيحية ، حيث ظهرت في هذا البلاد فوجدت فيها مرتعاً خصباً أزهرت فيه وأورقت وآتت أكلها كل حين بإذن ربها وعند ما اعتنقوا المسيحية سموا أنفسهم "سريانيين" أي آراميين مسيحيين "كما سنذكر ذلك في تاريخ الأمة السريانية" فوقف السريان حياتهم على البحث عن هذه الكنوز الثمينة التي طال عليها الأمد في رقدتها وملتها المضاجع، فنقلوا كثيراً من العلوم الفلسفية والمنطقية، وساعدهم على أداء هذه الرسالة الشاقة الجليلة موقع بلادهم الجغرافي بين أكبر قوتين عرفهما التاريخ القديم، وهما القوة الفارسية ذات الصبغة الشرقية شرقاً، والقوة اليونانية الآرية غرباً، فضلاً عما كان موجوداً إذ ذاك من الانقسام الديني المذهبي بين الحواريين من رهبان الكنيسة اليعقوبية غرباً والكنيسة النسطورية شرقاً وكانت اللغو السريانية هي لغة الكتابة والتأليف بين جميع الطوائف لمسيحية لتي انقسمت على أنفسها في تحديد طبيعة الإله والمسيح والتفرقة بين الإرادة والفعل الإلهيين ، وكان المذهب السائد إذ ذاك هو مذهب النسطوريين الذي ينص على التفرقة التامة بين طبيعة الإله والمسيح والتفرقة بين الإرادة والفعل وهو المذهب الذي ساد بين المسلمين في عصور الترجمة.

على أن الذي يعنينا من كل ذلك هو أنهم قد عنوا بناحيتين من نواحي التفكير اليوناني الأولى الأخلاق والتصوف وكانت وجهتهم فيها

الفيثاغورسية، والثانية المنطق والعلوم ووجهتهم فيها كتب أرسطو، والأفلاطونية الحديثة، وعلى الجملة كل ما لم يمس الدين والعقيدة ويصادمهما، أما الألهيات فكانت تترجم وتعدل على حسب ما يتفق والمسيحية الغضة الناضرة حتى إنك لتعجب كل العجب حيث يصورون لك أفلاطون الإلهي براهب شرقي رس حياته منعزلاً عن الناس ليبحث في طبائع الخير والشر والحقيقة الإلهية ، ولهذه النظرية قيمتها وأثرها في العلوم التي ترجمت إلى المسلمين فيما بعد على يد هؤلاء السريان من العلماء ومن على شاكلتهم.

فلما امتزج الروح اليوناني بالروح الشرقي الذي بعثه الإسلام في نفوس العرب، كان فتحا علميا هاما "بما لليونان من بحث دقيق ونظم منطقية مهذبة، وما للشرق من إلهام فطري وطبع خصب وميل إلى الغيب وما وراء المادة" فحل ذلك من عقدة ألسنتهم في المعقولات الدقيقة، ووضعوا نظريات، ورتبوا أصولها وقواعدها، وما كانوا ليستطيعوا ذلك لولا مساعدة العلم اليوناني.

في وسط هذه المعارك الفكرية قد تمخضت الحياة العلمية بعد طول جهادها عن قادة الفكر الواضح، وكواكب الرأي الساطع الذي تقشعت أمامها سحب الجهل والباطل بعد أن خيم على العقول قروناً عدة، وذلك كالفارابي والرئيس ابن سينا، وحجة الإسلام الغزالي في المشرق، وكابن باجة وابن طفيل وخاتمة المحققين الحكماء الإمام ابن رشد في المغرب.

وهذا هو العصر الذهبي للمسلمين الذي كانت تأجج فيه نور الحضارة الإسلامية وتستفيض نوراً يشرق على ما جاورها من البلدان في

حين أن أوروبا كانت إذ ذاك أسيرة الأوهام والوحشية مكبلة بأصفاد الكنيسة وملوك المستبدين تتخبط في دياجير الجهالة والظلمة، لم يكن لها متنفس تتنفس منه نسيم الحرية في الآراء المعتقدات، وأنى لهم ذلك والكنيسة واقفة لهم بالمرصاد، وسيف الظلم مصلت على رؤوسهم ينتظر فيهم كلمة القضاء؟!

في تلكم الأونة كانت إسبانيا تحت حكم العرب "بل ملكاً خالصاً لهم" فتربى في مدارس العرب وكلياتهم بها عدد من الأوربيين تنسموا أريج الحرية من زهرة الحضارة الإسلامية الأرجة فانسلوا إليها من كل حدب رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، حتى أذن مؤذن منهم بالعلم والآداب فما كانوا إلا كنار كامنة في حجره ما إن قدح حتى أوري واستطار شرره فأحرق الكنائس وقيودوها، والمعابد وتماثيلها، وكونوا لهم على أنقاضها بناء ثابت الأساس، موطد الدعائم على ما عرفوه عن العرب من حرية الآراء والأبحاث وكان ذلك حوالي القرن الرابع عشر الميلادي.

ولقد دعاهم شغفهم بالبحث والتنقيب إلى أن يغترفوا العلوم من مناهلها الأصلية، فدرسوا الكتب اليونانية القديمة، مستعينين على ذلك بشروح العرب، وخاصة ملخصات الشرح الصغير لابن رشد على كتب أرسطو وما زالوا يستزيدون حتى بدأت النهضة العلمية الأوروبية حوالي القرن السادس عشر الميلاد فدونت العلوم وأفرد كل مبحث بعلم خاص وصفيت شعب المعارف المتداخلة من قديم الزمان فقسموا لعلوم تقسيمات دقيقة، يبحث في كل فرع منها على حدته كأنه وحدة مستقلة، وشهر العلماء الذين قسموا المعارف ورتبوه وميزوا بعضها عن بعض (فرنسيس

بيكون) وأضرابه.

كان من هذه العلوم التي أصبحت ذات أهمية عظيمة في التاريخ الحديث "علم اللغات" بل هو أساس المباحث الدقيقة، ولا سيما في هذا العصر الذي أصبح فيه العقل ولوعاً بمعرفة أسرار الكون من مبدئه إلى منتهاه!

الباب الأول

في علم اللغات

الفصل الأول

في معرفته وموضوعه

يسمى هذا العلم بالفرنسي "فيلولوجي" وباللاتينية "فيلولوجيا" وهو مركب من كلمتين "فيلوس" محب و"لوجوس" كلم فحذفت "الواو والسين" ثم ركبت الكلمتان ثم توا بواو في "فيلو" فصارت "فيلولوج" محب اللغات ثم أرادوا العلم ذاته فزادوا "ياء" في الكلمة فصارت "فيلولوجيا" علم اللغات.

يبحث هذا العلم في اللغات الإنسانية التي كان لها كيان مستقل وشخصية بارزة في الوجود، سواء أبادت هذه اللغات أم تركت نفائس تذكرنا بآلها، ومدونات تقفنا على أحوالهم وأخبارهم، فيبحث عن لغة الإنسان الأول وهل هي واحدة أو متعددة؟ وذلك راجع بالطبع إلى اختلاف أنظارهم نحو الكون العام ونشوئه على هذه البسيطة فمن يرى أن الأجناس البشرية ترجع في تكونا ووجودها إلى نوع واحد هو الإنسان الأول لا مندوحة لديه من أن يعترف بوحدة اللغة الأولى للإنسان، ومن يرى أنها متعددة بتعد أصولها، وصل بذلك إلى تعدد اللغات الأولى للإنسانية، ثم يبحث في تكون اللغة الأولى للمجموعات المختلفة، وهل هي الهامية من الله وتوفيقه أم أنها طبيعية وضعية ككل الكائنات الحية التي تسير على قانون النشوء والارتقاء؟ ثم يبحث في النواميس والكائنات الطبيعية التي درجت عليها اللغات حتى أصبحت على هذا الرشد المكين لها.

ثم يبحث عن اللغات القديمة التي كان يتفاهم بها أهل العصور المظلمة وأوائل التاريخ لينقب في كنوزهم الدفينة وآثارها الخالدة ، ليبني بذلك لبنة متينة في أساس العلم الدقيق الذي ترومه الإنسانية لأن المرء حوادث متكررة متحدة وما أشبه الحاضر بالماضي.

ثم يبحث عن تدرج الخطوط ومناهج وضعها التي كانت النور الرباني الذي أوضح للإنسان الأول طريقة محمودة في سبيل تخليد ذكراه فنشأ عن ذلك وجود التاريخ الدقيق، وفجر الإنسانية الذي بدد أمامه جيوش الظلام الحالكة، وغرس بذور المدنيات والحضارات المتنوعة وجعلها في مستودع وقرار مكين.

ثم يبحث في كل لغة من هاتيكم اللغات المختلفة بحثاً دقيقاً، ويستخرج منها أحوالها، ومعارفها، وكنوزها والأحوال الطارئة عليها في أطوار لغتها حتى أصبحت إلى ما هي عليه إن كانت حية ترزق.

ثم يبحث عن الخصائص العامة بين اللغات ويوازن بين آثار كل منها ليضيف إلى العلم معرفة جديدة صحيحة.

كل هذه المباحث وأشباهها يعني بها علم اللغات.

وأما الفوائد الجليلة التي تعود على العلوم والمعارف والحضارات المختلفة من معرفة علم اللغات والبحث في موضوعاته فنتلخص فيما يأتي من بناء التاريخ الدقيق على آثار صالحة ومعرفة صحيحة ونبذ الخرافات والأساطير القديمة.

فضلاً عن أنه مبحث لذيذ شهي لدى النفوس المتعطشة إلى المعارف

حيث يذكر تاريخ الكلمة ومنشأها والأطوار التي مرت عليها والمعاني المختلفة التي تواردت عليها في عصورها المتداولة حتى وصلت إلى ما هي عليه، وتلك ميزة أن نحن حاولنا بيان فضائلها فكأنما نشك في شيء هو ألزم بنا من حياتنا وأرواحنا.

وإذ قد عرضنا لذكر التاريخ فيجمل بنا أن نذكر كلمة عن تقسيم العصور الإنسانية ومبدأ التاريخ ودرجاته.

الفصل الثاني

تقسيم العصور الإنسانية

للعلماء في تقسيم التاريخ القديم مذاهب متعددة ، فمنهم من يقسمه باعتبار الحياة الاجتماعية للأمم المختلفة، وما كانوا يقومون به من حاجاتهم المتنوعة، فيبحثون عن ذلك في طبقات الأرض وأعمارها من عصور جليدية وحديدية .. وهم الجيولوجيون .. أما علماء اللغات فيقسمون العصور التي مرت على الإنسانية إلى ما يأتي:

(أ) عصور مظلمة:

وهذه لا تدخل تحت التاريخ ولا العلم الدقيقين لأنه لم تكن هناك آثار تدل على مبلغ حضارة هؤلاء الأقوام، فلا يستطيع التاريخ أن يدرك أكثر من وجودهم في بقاع معينة من سطح الأرض، أما لغاتهم وعلومهم وحضرتهم ومدنياتهم، فلا سبيل إلى معرفتها، اللهم إلا لمعاً قليلة لا تروي غلة، ولا تبرد صدى قد تركها الإنسان في بدء التاريخ عن هؤلاء الأقوام، وهي إلى الرواية والأقاصيص الخرافية أقرب منها إلى بتاريخ الموثوق به، كما دون البابليون والآشوريون عن الصومرين سكان اللاد العراق قبل نزول الساميين إليها، وكما فعل المصريون القدماء عن سكان وادي النيل من الحاميين الأقدمين.

عصر فجر الإنسانية:

وهو ذاكم العصر الذي ولد فيه التاريخ بعد ن طال به المكث وهو في جوف الزمن تغمره الظلمات وتغشاه الحيرة والاضطراب.

هو العصر الذي بدأ الإنسان يشعر فيه بوجوده كائناً له قدرة وإرادة مستقلة، وفكر هداه إلى أن يتحرر من قيود الأوهام، ويسخر الطبيعة بجميع مظاهرها لخيره وإسعاده، فاستخدم مواهبه فيما عاد عليه وعلى الإنسانية بالمنافع الخالدة، وكان قبلاً يعكف بها على تملق الآلهة والتزلف إلى القوى الطبيعية.

فبدأ يدون أعماله ومعارفه ونظم حياته وعلاقاته المتنوعة نحو الآلهة والناس.

ومن هذا العصر يبدأ علم اللغات ببحثه والتنقيب عن آثاره والموازنة بينها ليستنير في بحثه وليقف على العلم والتاريخ الصحيحين من منابعهما الأصلية، وليزيد في رفاهية الحياة بما يضيف إليها من الحقائق العلمية والتاريخية التي تساعد الإنسان على ما يصبو إليه من كمال، ثم عصر المدنية بعد ذلك، وهو عصر الممالك القديمة ذوات الحضارات المختلفة، ثم عصر الإنسانية العام ولما تصل إليه الإنسانية بعد.

الفصل الثالث

درجات التاريخ

يعني المؤرخون بتقسيم التاريخ العام إلى درجات على حسب القوة والضعف في سبيل البحث والاستدلال، وذلك أنهم رأوا أن التاريخ من عهد فجر الإنسانية إلى حوالي القرن السابع عشر لا ينفك عن إحدى اثنتين: إما نقوش تدون على الآثار التي تركها الأقدمون تبصرة وذكرى للأجيال القادمة، وإما روايات وأخبار تنقل بالأفواه وتدون في الكتب وما إليها وعلى هذا فالتاريخ قسمان:

(أ) روائي أو قصصي:

وله جملة مصادر يستفيض منها، فمن منابعه كتب الوثنية القديمة وما دونوه من خرافاتهم وأساطيرهم، ومشاهداتهم للطبيعة، وتفسيراتهم المختلفة للكون وحقائقه ككتب الفيدا الهندية، وهي

أربعة كتب، وكالإلياذة والأوديسيا لليونان، وكالمشنة والجمرة والتلمود في اليهود.

ومنها الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ،على اعتبارها كتاباً تاريخياً لاهوتياً تذكر فيه المسائل التاريخية والمشاكل الاجتماعية في نظام الكون ونشوء الجماعات، ومنها الرحلات وسماع الروايات من أفواه الناس كما

فعل هيرودوت حينما زار بلاد مصر سنة ٤٥٠ ق. م فإنه نزل إلى طيبة ماراً بجهات مختلفة من نواحي مصر.

وكلما نزل قرية إلى أهلها وأخذ عنهم كثيراً من معلوماتهم وآثارهم ثم دون كل ذلك فضلاً عما شاهده واختبره بنفسه كوصف بعض الجهات التي نزل فيها.

وكما فعل ثوفراستس سنة ٢٨٠ ق.م حيث وصف جنوب بلاد العرب كاليمن وحضر موت وصفاً مسهباً لجميع تفاصيل الحياة الطبيعية والاجتماعية هناك في أسلوب قصصي خلاب.

ورأى علماء اللغات في ذلك القسم بجميع أنواعه من التاريخ هو أنهم يقفون منه على الحياد فلا يحكمون بنفي أو إثبات على أية مسألة إلا إذا ظهر قطعياً ما ينافي ذلك، ومن هنا ندرك الجهل الفاحش الذي تورط فيه بعض علماء هذا العصر حيث تعرض لنفي أشياء من هذا القبيل بحجة أنها لم تثبت من طريق الأثر العلمي الدقيق، وهو كما ترى جهل وحماقة بقواعد العلم والتاريخ.

(ب) تاريخ دقيق موثوق به:

وهو ما وجدوه بالتعلم والمشاهدة من آثار أمة من الأمم بعد تعلم لغتها والوقوف على أسرارها ومطالعة آثارها والموازنة بينها، ومن هنا نعلم أهمية علم اللغات، وكفاه فائدة أنه السبيل القويمة لترقية النقد العلمي، والذوق الفني المكتسب من خصائص اللغات.

وحسبك مقنعاً بفائدة علم اللغات أن تتدبر المثال الآتي:

مسألة طالما أرغي لها العالم الإسلامي وأزبد، وقامت في سبيله عواصف من جيوش الإلحاد المنكرة التي تأبى إلا أن تعترض السيل إذا هدر، أو تطفئ نور الله وترد عليه القدر! هذه المسألة هي تحريف التوراة وتبديل كلامها عن مواضعه، والجاهل بلغة الإسرائيليين يعتمد في إثبات ذلك على أن مُحَمَّد صل الله عليه وسلم، لم يرد ذكره في التوراة الموجودة مع أن القرآن صرح أنهم يجيدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ...

ولكن العلماء بلغة اليهود قد استراحوا واطمأنوا إلى ما أنزل الله، حيث وقفوا على أسرار تؤيد دعواهم، ولا يجد المكابر محيصاً عن الإذعان لها، وذلك أنهم عرفوا خصائص اللسانين في عصريهما المختلفين، لسان التوراة، ولسان موسى عليه السلام، الذي كان شائعاً في عهده، فأثبتوا بالأدلة التاريخية اللغوية أن التوراة هذه دونت بعد عصر موسى عليه السلام بما لا يقل عن عشرة قرون، أو في غضون ذلك.

كنت أود أن أتبسط في هذا البحث، وأثبت المواضع التي ورد فيها ذكر مُحَمَّد صل الله عليه وسلم من التوراة، لولا أني رأيت أن لذلك محلاً هو أليق به عند درسنا لغة الإسرائيليين ليكون ذلك أجمع للقول وأملك للبيان.

منزلة القرآن من التاريخ

والقرآن الكريم وإن كان معتبراً من التاريخ القصصي، إلا أن له منزلة خاصة في نفوس أكثر المؤرخين الذين يبحثون عن الحقائق العلمية التاريخية،

مجردين عن كل ما يتصل بالعاطفة الدينية أو الجنسية، وهذه المنزلة تجعله فوق كل اعتبار، ومهيمناً على كل الآثار التاريخية من قصص أو كتابة أو نقوش.

أما بالنسبة للتاريخ القصصي، فإن للقرآن أسلوباً خاصاً يغاير أساليب الكتب الأخرى في سرد الحقائق التاريخية، وتفسير المظاهر الكونية، فالكتب الدينية كالتوراة مثلاً، تتعرض لسرد تاريخ مفصل ممتع لذيذ لكل أمة من الأمم التي كان يهم الإسرائيليين أمرها بأسلوب قصصي رائع يأخذ على العقل مسالكه، ويضعه في روضة أنيقة من رياض الخيال الفطري، تعبق في أرجائها براءة الدين وطهارة الطفولة الفكرية.

أما طريقة القرآن في هذا فهي أن يذكر أشياء عامة مجملة بحيث يعتني العناية كلها بإخراج صورة متقنة لا ليس فيها ولا غموض تتحمل كل معنى مستقيم وتتقبل كل تأويل لا يتنافى مع ذوق اللغة وأوضاعها.

وحسبك أن توازن بين الأسلوبين في بعثة موسى عليه السلام ومناجاة الرب له، وي مسألة تاريخية فإنك تجد التوراة قد فصلتها تفصيلاً دقيقاً، حيث حددت ذات الإله، وأوصافه، ولونه، والأرض التي كان عليها، والمكان الذي نزل منه، والصوت الذي تكلم به، إلى غير ذلك مما تسبح فيه العاطفة الدينية إلى حد ما.

أما القرآن فقد صور لك الحادثة بأجمع أسلوب، وأوضح بيان ذلك بأنه لم يحدد الإله، ولم يذكر صفات المكان الذي نوجي منه، ولا حدد صفة المناجاة، وكل ما هنالك أنه ذكر كلمة عامة تتقبل كل ذلك حي قال:

"آنس من جانب الطور ناراً .. فلما جاءها نودي أن بورك من في النار" ... حتى حادثة رفع الجبل التي قد استجاب فيها اليهود إلى خيالهم، لم يزد القرآن أن قال: "وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة".

هذا في سرد الحقائق التاريخية أما في تفسير المظاهر الطبيعية فهناك وهناك وحده نجد المذهب اللاهوتي قد قال الكلمة الأولى والأخيرة في تفسير كل صغيرة وكبيرة مما يشغل بال الناس، ويهمهم معرفته.

انظر إلى تفسير التوراة لاختلاف الألسنة والألوان والرعد والسحاب، فإن التوراة تفسر ذلك بأن الشعب البابلي كان يبتني له صرحاً يبلغ به أسباب السماوات، فنزل الرب وحطم الصرح، وبلبل الألسنة، حتى لا يتفاهم الناس فلا يتموا العمل الذي ابتدأوا فيه، ومن هنا سميت الأرض بابل وعللت اختلاف الألوان بأن أحد أولاد نوح كشف عورة أبيه فدعا عليه أن يكون عبداً لإخوته ويسود جلده ...!!

أما القرآن فلم يتعرض لمثل هذا القول، بل جعله عبرة وذكرى، وأية على وحدة الخالق، وقدرته حيث قال: "واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين".

هذا بالنسبة للتاريخ القصصي .. أما بالنسبة للآثار المدونة أو النقوش المكتوبة، فالتاريخ نفسه أكبر شاهد على أن معظمها كذب وبهتان وما حوادث رمسيس الثاني التي كان يمحو فيها آثار الملوك والكهان من الهياكل، ويكتب اسمه عليها عنا بخافية، وقد فعل أخناتون مثل فعله، وفعل غيره مثل ذلك في كل عصر، وفي كل بلد حتى أصبحت الآثار من أوهى

الأدلة في عصرنا، إن لم تؤيدها الحوادث الصحيحة.

هذه منزلة القرآن بالنسبة لأدلة التاريخ، أما منزلته من حيث ما أودع فيه من الأسرار الكونية، والأخبار التاريخية، فنحن نقصر الحديث فيهما على بيان وجهة نظر التاريخ نفسه.

فقد ذكر القرآن في غير موضع من آياته التاريخية، أن أموراً ستحدث وقد أيدت المشاهدات والتجارب صدق ذلك كوعد الله رسوله بالنصر وفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وها قد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وأنجز وعده مع ما كان يحيط به من أحوال تجعل الثقة في إنجازها أوهن من بيت العنكبوت، لضعفه ويتمه وانفراده في وسط هذه المعامع الصاخبة، وتلك الجيوش المعاندة التي تتألف من قريش وأحلافها أهل اللدد والخصومة.

وكما ذكر لنا أموراً مستقبلة فقد تحدث إلينا عن الماضين وأحوالهم ولا نزال نرى في كل وقت مكشوفات علمية تحمل في طياتها آية من آيات القرآن وصدقه فيما حدث وأخبر.

ومن سنوات معدودة كان العلماء إذا سمعوا عن المدنيات القديمة التي تحدث عنها القرآن في بلاد العرب من اليمنيين وعاد وثمود يبسمون عن سن متهكمة ساخرة !! حتى إذا ما حقق الكشف الذي قام به بعض علماء الآثار مثل "جوزيف هاليفيوجلزر" وغيرهما بعض هذه الجهات إذا بهم يطأطئون رءوسهم أمام جلاله وصدق أخباره!

وإذا نظرت إلى تفسير القرآن لمظاهر الطبيعة وجدته يحث على النظر

الحر والاستقراء الدقيق ... وها نحن أولاء نرى العلماء يكشفون ويخترعون، وقد غصت المدنية بأنواع المعارف والعلوم المتنوعة، وما وجدنا علماً يتنافى مع القرآن بل كثيراً ما نجد نصوص القرآن تشير إليه من طرف خفي: ألا ترى أن في قوله تعالى "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً" إشارة لطيفة إلى اختراع التصوير الشمسي؟ وفي قوله تعالى "كأنما يصعد في السماء" دليلاً على أن الإنسان إذا ارتفع في الجو وجد الهواء غير صالح للتنفس؟

هذا وقد ظهر حديثاً كتاب (في أسرار القرآن الفلكية) لقائد من قواد الجيش التركي أتى فيه بالعجب العجاب: حيث استخرج كل مسائل الفلك الدقيقة، وقوانينه الهندسية البديعة، وما انتهى إليه العلم الحديث في كل مسألة من مسائل الجغرافيا الفلكية من نصوص القرآن وإشاراته بأوضح بيان وأجلى برهان، حتى لا يشك من يطلع عليه أن الآيات ما وضعت إلى لتفسيرها، ولكنها ظلت أحقاباً لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم.

وللأديب "داود الانطاكي" كتاب في أسرار القرآن الطبيعية أتى فيه بأحدث المسائل التي تكلم فيها اليونان وحكماء العرب فوجدها من ألفاظ القرآن تنبع ومن رياضه تزهر وتثمر ...

وذلك لأن القرآن ليس كتاب أمة واحدة لعصر معين إنما هو كتاب الدهر بأجمعه، وحجة الله القائمة مدى الحياة، ونور العقول الحرة وسراجها مهما ارتقت، وأدب الطبيعة الإنسانية حيث حلت وأني وجدت، ولغة الحياة، إذا تكلمت خشعت الأصوات لها فلا تسمع إلا ركزاً ...

هذه كلمة خطرت لنا أثناء البحث في درجات التاريخ، أما نظر العلماء للقرآن من حيث أنه كتاب سماوي موحى به من عند الله ...

فتلك مسألة أخرى لا أود أن أثر عجاجها في هذه الرسالة الصغيرة.

الباب الثاني

في علم اللغات

الفصل الأول

مجاميع اللغات

إذا أمعنا النظر على وجه المعمورة رأينا أجناساً بشرية كثيرة العدد لكل واحد منها لغة خاصة يتفاهم بها مع من تربطه وإياه أواصر الجوار ووشائج القربى، ووجدناه أيضاً يختلف اختلافاً بيناً في طبيعة اللون وتركيب الجسم ... فمنه الأبيض الناصع، والأسود الفاحم، والأشقر القمحي، والأصفر الفاقع ..

أمام هذا الاختلاف البين في الأجناس والألوان، والتبلبل الظاهر في الألسنة –اضطر علماء اللغات إلى حصر هذه المجموعات الشتى في أصول يسهل تفرغها وضبطها، ولهم في طريقة هذا الجمع مذهبان:

(أ) ديني:

نشأ على حسب رواية التوراة في أصل الخليقة وتبلبل ألسنتهم فقد حدثتنا: أن الطوفان اجتاح سكان الأرض ولم ينج منه سوى نوح وأولاده الثلاثة: سام وحام ويافث وما حمل معه في سفينته من كل زوجين ... فنوح هو الأب الثاني للأجناس البشرية، وعن أولاده الثلاثة تفرعت إلى السامية والحامية والآرية (اليافثية) وعلماء هذا المذهب يبحثون عن اللغات البشرية على هذا النسق مبتدئين بالأهم منها.

(ب) طبيعي:

ينظر إلى الألوان والتركيب الجسمي ويجعل اللغات التي يتفق أهلها في الخلقة – مجموعة واحدة .

ومهما يكن من مر هذا التقسيم فإن علماء اللغات قد وجدوا بالبحث والاستقراء أن أغني اللغات الإنسانية، هما السامية والآرية؛ لأنهما اللتان تركتا آثاراً خالدة، وفخاراً مجيداً على الناس أسباب حياتهم، بما أنتجته عقول أبناءهما من أفكار فلسفية، وقواعد علمية صحيحة بما كان لهما من السلطان في العصور التاريخية القديمة، وقد كانتا تنزلان فيما بين الصين شرقاً ووادي النيل نوباً، وأهم الأنواع التي تفرعت عن كل واحدة منهما تتلخص فيما يأتي:

(١) فالجنس السامي:

أهم فروعه البابليون، والآشوريون، والكلدانيون وكل أولئك في المشرق من بلاد الجزيرة العربية حيث العراق وما بين النهرين والكنعانيون، والفينيقيون، والآراميون، والعبرانيون، والسريانيون وهم في المغرب منها حيث الشام وبادية السماوة. والمؤابيون، والعربيون، والأحباش في جنوبيها. وقد كانت لغاتهن جميعاً متقاربة ومتناسبة كما سنذكر ذلك.

(٢) الآري:

أهم أممه الفارسيون والهنود في المشرق والليديونوالميديون في آسيا الصغرى، "والأندوجرمانيون" في أوروبا جميعاً فالقسم الشمالي الشرقي منها عرف بالجنس "السلافي" في روسيا، والجنب الشرقي عرف "بالإغريق" في بلاد اليونان، والجنوب الغربي عرف "باللاتيني" في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا،

والشمالي منه عرف بالجنس الجرماني التيوتوني، ونزل حيث ألمانيا والنمسا والمجر والسويد وهولاندا وانجلترا ...

وبما أننا من أبناء اللغة العربية فجدير بنا أن ندرس اللغات السامية وآدابها دراسة مستوفاة لنصل بذلك قديمنا بحديثنا، ولنقف على تدرج هذه اللغات التي أودعها أسلافنا مجدنا وميراثنا، ولنهتدي إلى حل كثير من مشاكلنا الأدبية والاجتماعية والدينية إذ كانت الإنسانية سائرة على قانون النشوء والارتقاء العام.

والذي حدا العلماء إلى هذا التقسيم فضلاً عما تقدم هو وقوفهم على خصائص في لغات كل مجموعة لفتت أنظارهم إلى أنها جمعاء لابد أن تكون سليلة أم واحدة، وأول من تنبه لذلك اليهود في القرون الوسطى، ولكن المستشرقين وخاصة الألمانيين منهم هم الذين تعهدوه بالدأب والتمحيص حتى نهض على ما نراه الآن من القوة والنضارة اللتين جذبتا إليه الأنظار.

الفصل الثاني

منشأ اللغات

للاستفاضة في هذا المبحث والتثبيت من مسائله التاريخية والعلمية ينبغي أن نجعل القول في منشأ اللغات، وقوانين تدرجها التي أصبحت بها ذات حدود وقواعد عامة، ثم أهم العوامل في نشوء اللهجات المختلفة التي هي أمهات اللسان الحالي.

أما منشأ اللغات فيختلف العلماء كذلك فيه على رأيين:

ففريق يرى أن الجنس البشري تفرع عن أصل واحد، وهو بذلك يرجع اللغات إلى جدة عالية لا تزال سراً مكتوباً في ضمير الغيب.

والمعقول من أقوال العلماء أنها نشأت على حسب قوانين التدرج والارتقاء: فمنها المحاكي به عن أصوات الطبيعة، أو أصوات الحيوان والإنسان، ومنها المرتجل بقوة الفطرة الناطقة التي امتاز بها الإنسان عن سائر الحيوان.

ووضع الألفاظ على نسق المحاكاة والفطرة إنما تم على جملة مراحل:

فمنها أن الإنسان سمع أصوات الطبيعة المختلة كالرعد والمد والخرخرة، فوضع لها ألفاظاً من أصواتها على نسق ما سمع وشاهد.

وكذلك أرهفت أذنه الأصوات المنكرة التي كانت تنفجر من جوف

الحيوانات المختلفة لضخامتها، واستواء حناجرها، وكثرة اختلاطها به، فوضع لذلك ألفاظاً على نسق ما سمع منها، كعواء الكلب وخوار العجل، وزقاء الديك ...

وكذلك حاكى الأصوات الفطرية في الإنسان فوضع لها أسماء على حسب ما عاين من نفسه، وأحس من مدلولاتها كالشهيق والزفير، والتأوه والتنهد ...

أما منشأ تفرع اللهجات فهو أن الإنسان قلما يتفق مع آخر في حس السمع وأمانة الأدواء، فأنا أسمع صوتاً فأميزه بحكم مخصوص وغيري يسمعه بجرس آخر أشد أو أضعف على حسب مراتب القوة المودعة في طبلة الأذن، والمؤثرات الخارجية الأخرى التي تحيط به، ثم هما وإن اتفقا في وحدة السمع يختلفان في كيفية الأداء: فإني مثلاً ربما استكملت من أدوات الفصاحة ومخارج الحروف، ما لم يتهيأ لغيري فيتشعب النطق وتتفرق اللهجات.

أضف إلى ذلك أن الناس يتفاوتون في مقدار التساهل عن التعبيرات المختلفة التي يكشفون بها عن أغراضهم ومقاصدهم فبينا ترى المتنوق المدقق إذا بك ترى المتظرف المستهتر، فتربو اللغات وتعدد الألسنة، فلذلك ولأن المرء وقتئذ دستور نفسه وقوله الفصل في جميع أحواله وأعماله ... لا غرابة أن تصبح هذه أصولاً تتباعد كلما شط بها المزار وطوح بها النوى ...

هذا على وحدة النوع البشري على وجه البسيطة، وأما من يرى أن

النوع الإنساني متعدد بتعدد أجناسه فإن اللغات لديه متفاوتة مختلفة لا يمت ببعضها إلى بعض إلا بصلة الجوار فقط.

وعلى الفرض الأول "وهو الراجح" تفرعت عدة لهجات عن اللغة الأولى للإنسان بتفرق القبائل التي كانت ترحل حيث الكلاء والمرعى.

هذا وأهم اللهجات التي تفرعت عن الجدة العليا، هي السامية والآرية، والحامية.

وقبل أن نتحدث عن اللغات السامية التي تفرعت عن الأم القديمة، أرى أن أذكر كلمة عن المهد الأصلي لها والباقي أولادها.

الفصل الثالث

المهد الأصلي للغات السامية

إذا رجعنا إلى التاريخ العلمي لا نجد أثراً نعتمد عليه في هذا المبحث فكل ما يقال فيه إذن هو من قبيل الفرض والمقايسة.

ففريق كبير من العلماء يرى أن معهد اللغات السامية هو جنوب أرمينية، ولا برهان له على ذلك سوى ما ورد في سفر التكوين من أن الطوفان أغرق العالم ولم ينج منه سوى نوح وبنيه وما حمل معه في السفينة التي رست على جبال أرارات، حيث بني نوح هناك معبداً يقرب إلى الرب محرقاته فيه وأقام هو وذريته ما أقاموا ثم نزحوا منها إلى باقي الجهات التي ذكرناها.

وفريق آخر يرى أن مهدها الأصلي هو بلاد العراق لخصوبة أرضها وقدم تاريخها ... وقد غالى أصحاب هذا الرأي حتى قالوا إن أقدم حضارة وجدت على وجه البسيطة هي حضارة العراق ثم استفاضت منها على بقاع العالم.

أما أمثل الآراء في اعتقادنا وأقربها إلى الصحة هو ما انتهى إليه الفنيون من علماء اللغات على أنه جزيرة العرب، ولهم على ذلك براهين تؤيد دعواهم، وتنفي الريب عنا، ولتوضيح آرائهم نقول:

من المشاهد في طبيعة الإنسان أن اختلاف المناظر الخارجية تذكي في

نفسه نار التطلع والتفكير، ويستحثه على توقد الذكاء وصفاء القريحة، ويربي في نفسه سعة الخيال وحسن التمثيل وجمال التنويع، فيكون لديه شيئان يمدانه بالمعونة والرقي أحدهما فطري في داخله ينتزعه الخيال طوع إرادته، ويركب فيه ما حلاله التركيب خيالاً بديعاً يأخذ بالألباب ويستهوي الأفئدة ويمتع أعين الناظرين.

والآخر خارجي، وهو ذلك المدد المتنوع الأسماء والألوان، والمتغير الطبائع والخصائص، والمتفنن في الرواء والتنسيق، فهو بعد في حياة كلها بهجة وسرور وجداني، وإن هو قطع عنه هذا المدد الخارجي فأنه لا يفتأ ينفق مما أدخره أيام سعادته الروحية ثم يورثه أعقابه ونعه ...

كما أنه من البديهي أن الوقوف على منظر واحد مألوف يبعث في النفس هدوء وطمأنينة، ويجعل الخيال محدوداً، والانتزاع منه قليل الإنتاج؛ لأن الخيال ما هو إلا انتزاع صور شاهدها الحس من الذاكرة، وتركيب صور أخرى قد تتلاءم إلى حد ما مع ما رآه وشاهده ... وهذا الشخص الذي لم يشاهد إلا منظراً واحداً يتكرر أمام عينيه، لابد أن يكون خياله محدوداً إن لم يجد تربة خصبة ينمو فيها فيصبح هذا النقص في الخيال طابعاً له ولبنيه من بعده، تتناقله الأحقاب بطريق الوراثة، حتى لو انتقلوا إلى جهات أخرى تتعدد مناظرها، وتتنوع مشاهد الطبيعة فيها، فإنهم لا يزالون على عهدهم القديم من بساطة الخيال، وسذاجة التصور والإدراك ...

وعلماء اللغات الذين عنوا بالبحث في هذا الموضوع قد درسوا مجموعات وافرة من اللغات السامية والآرية، وقارنوا بين منتجاتهما الأدبية والعلمية حتى تكونت لديهم خصائص كل مجموعة ووضحت عندهم مناحي

التفكير والخيال في آثار كل عقلية من العقليتين السامية والآرية.

فوجدوا في اللغات الآرية خيالاً بديعاً، ونظرة عميقة فلسفية إلى بواطن الأشياء، وحيرة بادية على عقولهم لعجزهم عن تفسير ما غمض عنهم من أسرار الطبيعة وجمال هذا الكون البديع الذي يدهش اللب ويدع العقل حيران مضطرباً !!

ولما درسوا اللغات السامية وآدابها وجدوها تتقارب في نوع التفكير، وروح البحث، ووسائل التبير عن أغراضهم المختلفة: فليس لهم إلا النظرة السطحية التي لا تمس شغاف الحقيقة، ولا تصل إلى لب المعنى وقراره، وليس لهم هذا العقل الجبار الشاك الذي لا يهدأ أو يدرك ما يريد! وإنما لهم هذا العقل المطمئن الوادع، والفؤاد الهادئ الساكن ... فأني لهم هذا المنحى في خيالهم وتفكيرهم إذا لم يكن مهد ضارتهم الأولى هو بلاد العرب التي لا تكاد تختلف مناظرها من هضاب إلى رمال، إلى سماء صافية الأديم، وأرض كئود لا بيض حجرها، ولا تندي صفاتها، ولا تبل إحدى يديها الأخرى ... فليست لهم هذه المروج الخضراء التي تتدرج على سفوح الهضاب ذوات الألوان البهجة، والرياحين العطرة، والأزهار المبتسمة، وليست لهم هذه الأنهار التي تتكسر على صفحاتها حبات القلوب، والتي تنساب أمام ناظرها ميمونة الغدوات، مباركة الروحات، تمخر عبابها السفن الجاريات فيها كالإعلام، إلى غير ذلك مما هو إمتاع للنفس ورفاهية للحياة!

فكل ما صادفوه في بلاد العرب هذه الأوقات القديمة هو رهبة الصحراء وجللها، وروعة الطبيعة وبهاؤها ... فأكسبهم ذلك هدوءً في تفكيرهم، وتسليماً مطلقاً للإله في مصير أمورهم، ومن هنا تدرك السبب في

أن صحراء العرب هي مهبط الوحي، ومنبع النور الإلهي.

ففيها تجلى الله لموسى في طور سيناء وهي شعبة منها، وفيها أرسل ناموسه الأكبر إلى عيسى في جبل ساعير وهو ببادية الشام التي هي الطرف الشمالي لجزيرة العرب، وفيها أشرقت شمس الإسلام في جبال فاران بمكة المكرمة كما ورد في التوراة.

ولهذا قال بعض المؤرخين: "إن الذي نجعله نصب أعيننا في تمييز كل منهما عن الأخرى هو: ن التفكير الآري يرجع إلى تقوية الخيال وتنميته، أي أن مبدأ التفكير فيه من الداخل ولذا نرى بين أفكاره كثيراً مما لا وجود له في الخارج، أما السامي فعلى العكس من هذا، تفكيره فيما تجلبه إليه الحواس من الخارج غالباً، ولذا نرى كثيراً مما في الشعر العربي حقائق، وما فيه من خيال يغلب على الظن أن يكون آري الجنس، ولهذا رجحت كفة القائلين بأن كليلة ودمنة مترجم لا موضوع".

هذا هو ملخص آراء العلماء في هذا المبحث وهو كما يرى الباحث لا يخلو من مبالغة ومغالطة مبناهما تعصب الأوروبيين للغتهم ولجنسهم الآري ولكنه على كل حال يعطينا صورة واضحة عن مناحي التفكير والتصور لدى الأمتين.

وإذا صح بعد هذا أن جزيرة العرب هي المهد الأصلي للساميين فتكون اللغة العربية القديمة هي أصل اللغات السامية، وبالتالي يكون الأعراب القدماء هم البقية الباقية من الأرومة السامية الأولى.

الفصل الرابع

خصائص اللغات السامية العامة

إن للوسط الطبيعي الذي نشأت فيه الأمم السامية، وتبادل المنافع التي كانت لديهم بمثابة الوشائج والروابط الاجتماعية –أثراً نلمسه في لغاتهم، وخصائص تدركها في أذواقهم وطرق بحثهم، وتدوين معارفهم ومختلف لهجاتهم، فهم وإن أصبحوا أجناساً متمايزة، وقبائل متنافرة لكل منه مقوماتها وتاريخها، لم تزل هناك علاقات واضحة، تضم شتات هذه اللغات، وتنطق بما كان لها في العهد القديم من حرمة الاتصال، ونسب القربى.

وأهم ما لاحظه علماء اللغات من الخصائص بين جميع اللغات السامية التي تتميز بها عن مجموعات اللغات الآرية هو ما يأتي:

(أ) نرى أن اللغات السامية على اختلاف درجاتها تعني العناية كلها بالألفاظ والحروف فيضعون لكل معنى حروفاً ثيرة حتى إنك ليأخذك العجب أن ترى لكل نبرة من خلجات النطق الطبيعي حروفاً تدل عليه، فالتضخيم له حروفه المشهورة ولا سيما في اللغة لعربية، وللترقيق حروف خاصة كذلك، وللصفير والاشمام وغيرهما من تفاصيل النطق الطبيعي مثل ذلك، على حين قد أهملت اللغات الآرية كل هذا، واستعاضت عنه بالحروف الصوتية التي لا نجد لها أثراً في اللغات السامية.

فبينا تجد اللغات السامية قد أسرفت في وضع الحروف المختلفة

للدلالة على النطق إذا بها لم تعن بوضع حرف يدل على الفتحة أو الكسرة ... إلخ مما اضطرها إلى اختراع الأعراب الذي هو تغيير أواخر الكلمات وتحديد الدلالات من الألفاظ أما اللغات الآرية فالفتحة والضمة، كل أولئك له حروف صوتية تدل عليه في الكتابة.

(ب) إذا أخذت بمجموعة من قواميس اللغات السامية وأنشأت تقارن بينها وتتبعت تصاريف الكلمات الوصفية وصيغ الألفاظ الدالة على المعاني المختلفة رأيت أن معظم هذه الأوصاف والمشتقات يرجع في أصل اشتقاقه إلى أصل واحد هو اسم من أسماء المحسوسات التي تعارف الناس عليها قديماً وجعلوها مصدراً لكل هذه المشتقات والمعاني الفرعية التي نشأت عنها، والتي يرجع في مجموعها إلى الاسم القديم الذي تعارف الناس عليه باصطلاح كلمة "فعل" وأكثر ما تجد هذا الفعل مكونا من ثلاثة أحرف ولهذا نجد في جميع اللغات السامية أن الفعل الثلاثي هو أصل المشتقات وهو الميزان الصرفي لباقي الكلمات وما عداه من الرباعي وغيره إنما هو فرع منه.

وتختلف اللغات السامية في تطبيق هذه الخصيصة وأعظمها استفاضة وشهرة في ذلك إنما هي اللغةالعربيةكما نعلم ذلك من على الصرف والقواعد.

وهذا مالاتعثر عليه في اللغات الآرية فذوق اشتقاقهم وتركيب نعتهم إنما هو بزيادة حرف أو نقصانه عن اسم جامد وقلما تجد للاسم الجديد صلة بالمعنى القديم وهذا على ما أظن ناشئ من فقر اللغةالآرية كما سنبينه بعد.

ولهذه الميزة وحدها يسهل علينا أن ندرك الفرق بين طريقة البصريين من علماء اللغة العربية والكوفيين في مبدأ الاشتقاق وأصله فالكوفيون يرون أن الفعل هو أصل الاشتقاق وعنه تفرعت باقي الأوصاف من اسم الفاعل والمفعول.. الخ. على حين تجدالبصريين يرون أن المصدر هو أصل المشتقات، وما حدا البصريين إلى القول بذلك إلا تشبعهم باللغة الفارسية الآرية وطرق اشتقاقها وذوق أهلها في التحويل والدلالة لأن البصرة قريبة الجوار من. الفرس ومعظم أهلها منهم بخلاف الكوفة فهي بدوية أعرابية وإن كان فيها أعاجم.

(ج)- وهناك ظاهرة عامة بين اللغات السامية تميزها عن اللغات الآرية، ولكنها على عمومها لا تظهر جلية إلا في اللغة العربية، وهي (الإعراب): الذي هو تغير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليه. واللغات السامية تتفاوت في ذلك تفاوتا ظاهرا فقد لا يتيح لك البحث أن تجد له أثر قويا في اللغات البابلية والعبرية والسريانية ولكنه مع ضآلته في تلك اللغات يدل على أنها كانت تسير مع باقي أخواتها في شعب واحد، ولكن السبل شطت بها، وردتها على أعقابها بينها اللغة العربية أختها قد قطعت في سبيل ذلك مراحل مباركة زادت في ثروة اللغة وقربتها إلى الغاية المنشودة من الكمال حيث جعلت اللفظ الواحد يؤدي أغراضا مختلفة، فوسعت بذلك مالم تستطع لغة أخرى أن تسع له من دلالات جمة كثيرة بلفظة واحدة تتشكل لكل معني على حسب ما يوافقه على قانونها النحوي البديع الذي هو سر نجاحها وبلاغها بين اللغات الحية، وتعميرها هذا العمر المنقطع النظير في تاريخ اللغات، ولست أريد أن أفصل القول

في سر هذا الأمر فهو مبحث اللغة العربية أمس منه بأي مبحث آخر، ولكني أود أن أقول: إن الذي سهل للأمم السامية ذلك هو أنهم لم يستطيعوا أو لم توافقهم حناجرهم الطبيعية أن يضمواكلمة إلى أخرى لتؤديا معنى عاما فيها كما هو الحال في اللغات الآرية التي أوشكت أن تكون ألفاظها محدودة، وأساليبها معروفة وطرق التعبير فيها واضحة لا تظهر براعة ولا يستقيم فيها الافتنان والتنوق الذي هو سر اللغات السامية وجمال وجودها وسبيل إعجازها.

وهذا يعد حضارة لغوية جليلة ولذا رأينا بعض اللغات الآرية تستعير هذا الثوب الجميل من معرض الساميين وتلبسه وتجتهد بعبقرية أهلها أن تصبغه بصبغة آرية حتى لا تظهر عليها مسحة الاستجداء وتلك اللغة هي اللغة الألمانية المحبوبة لدي الساميين، فهي اللغة الآرية الوحيدة التي تجد فيها ما يشبه الإعراب.

(د) ولهذا السبب وحده ترى الأمم السامية تميل بلغتها إلى المحافظة على هذا الكنز الثمين محافظة الشحيح بماله والجبان بنفسه فترى الأسلوب الواحد والعبارات المتنوعة والألفاظ الجمة المعاني تستعمل على قرون عدة وأزمان متفاوتة لا تخلق جدتها على الأيام ولا يعتريها وهن ولاخور كأنها لغة الطبيعة قد قدت من كل إنسان وركبت على كل حنجرة، وشملت كل معاني الحياة فأخلدوا إلى الراحة وتماسكوا بالقديم القوي، وأغنتهم الطبيعة البارة أن ينصبوا أنفسهم لغالبوا الحياة ويجددوا من لغتهم وحناجرهم حتى يستطيعوا أن يعيشوا عيشة تسكن إليها نفوسهم وتطمئنها أفئدتهم كماهو الحال في اللغات الآريةالتي لاتكاد تتفاهم مع من سبقها بعدة قرون لكثرة

الاختلافات وتنوع التعابير وكثرة الألفاظ المستحدثة، وترك القديمة وإدخال كلمات لا صلة لها بقديمهم ولا تقاس عليها لا برسم ولا بصوت ولا بدلالة. فكأن الطبيعة قد جعلتهم أمة متمايزة في كل عصر على حين تجد اللغات السامية تناجيك من آلاف السنين وتحدث إليك فكأنها لغتك التي تنشئها وأسلوبك الذي تخاطب به فهي سلسلة متصلة الحلقات متشابهة الأوضاع وأعظم ما تجد ذلك واضحا في اللغة العربية أصل اللغات السامية كما سبق.

تلك هي الخصائص العامة التي لاحظها علماء اللغات في الفرق بين المجموعتين السامية والآرية وهناك خصائص أخري لا تخرج عما ذكر. كما أنك تلاحظ أن اللغات السامية تتفاوت تفاوتنا كبيرة في هذه الميزات حتى ليخيل إليك أن القرب بين لغة آرية ولغة سامية قد يكون من الوضوح أعظم من مقارنتها بلغة سامية أخرى ولهذا أسباب نذكرها في كل لغة على انفراد.

الفصل الثاني

خصائص العقلية السامية

"الحياة العقلية لأمة من الأممميزان حساس يقدر به مقدار نهوضها وما وصلت إليه من الرقي والحضارة في نظامها الاجتماعي ونواحي العمران فيها فإذا رجحت كفة هذا الميزان عند قوم تجلى بالطبع تبعا لذلك كل ما لديهم من الرقي المدني والنهوض الأدبي بمقدار الرجحان فيه".

فإذا صحت هذه النظرية أو تلك القاعدة كان الساميون القدم قد بلغوا من المجد أوجه وتسنموا العز والفخار: حيث قد علمنا أنهم هم المؤسسون للمدنيات القديمة والحضارات العظيمة التي انتشرت. علي وجه البسيطة. فمنهم البابليون الذين مارسوا من النظريات العلمية ما نعده الآن جديدا ومن محدثات هذا العصر. فلقد دلتنا آثارهم التي كشفت حديثا على أنهم نظروا في العلوم الفلكية وهذبوهاورصدوا كواكب السماء وقدروا منازلهاوصنعوا لذلك آلات وإرصادا لاتزال موضع بحث وتدقيق بين العلماء لمعرفة أسرارها وتكوينهاكما بحثوا في الشرائع والقوانين والعادات والعقائد بما يعد النواة التي بني عليها علم الاجتماع التشريعي، والكنعانيون هم واضعو أساس الخطوط الصوتية ومنهم تفرع الخط في بقاع العالم الآري منه والسامي. وكذلك هم. المخترعون للسفن ونظام التجارة والمستعمرات وحكمها. والنبط هم واضعو علم الفلاحة والزراعة ولا تزال الأمم تدهش لما وصلت إليه هذه الأمة منالتفنن فيها ونظمها وحساباتها وأوقاتها.. والعبرانيون هم أول الأمم التي

امتدت بهدى التوحيد في وسط الجيوش المظلمة من الوثنيين وقد عنوا بالبحث عن آثار التاريخ القديم لديهم وأطواره وعلله ووضعوا لذلك تفسيرات جليلة تعد الآن من العلوم الجديرة بالبحث والاستقراء وهكذا باقي الساميين.

فإذا كان هذا صحيحا فما بالنا نرى المستشرقين الآن ينعتون الساميين بعقم الإنتاج وسذاجة الحياة الاجتماعية وعدم عملهم بأساليب السياسات المختلفة، وغير ذلك مما دبجه براع العاهل الفرنسي رينان كما أنهم (خلو من الروحانية السامية التي عرفها الهنود والألمان، ومجردون من الذوق الفني والإحساس بالجمال الذي نما وكمل عند اليونان، وليس لهم هذه العواطف الجياشة الرقيقة التي اتسم بها الفرنسيون أهل الفصاحة واللسن). إلى غير ذلك مما نفثه يراعه المفلول... في كتابه "تاريخاللغات السامية".

وغالب ظني أن الذي حملهم على ذلك راجع إلى ثلاثة أشياء:

(١) أنهم رأوا أنفسهم مسيطرين على أمن الشرق ماديا ومستغلين مجهوداته جميعها، وهم مع ذلك يشعرون أنهم رسل الإنسانية والحضارة في الأرض وأن واجبهم أن يشعروا المغلوبين على أمرهم أنهم لا يصلحون لحكم أنفسهم استقلاليا لأنهم قوم خائلون لا يستطيعون أن يعيشوا بغير رقيب ولا وصي!!

هذا إذا ناجوك من جهة السياسة والحكم والحرية فإذا تحدثت إليهم من جهة العلوم والآداب رمونا بالجمود وضيق الفكر وعقم الخيال شأن المعاند اللبق الذي أوتي بسطة في القول وذرابة في اللسان وحظا من القوة فهو يصرفها كيفما يشاء لا يرغب ضميره العملي المزعوم ولا يخشى لومة لائم في ذلك.

(ب) أنهم رأوا أنفسهم أرباب المخترعات النافعة ورسل التحول الانتقال فرمونا بالجمود والمحافظة، واسنوا أن المحافظة كالوثوب كلاهما ضروري لحفظ الحياة وما علموا (أن بين بناء العالم المادي وبين تكوين الجماعات الإنسانية أوجها من الشبة تمثلها عناصر لازمة لحفظ النظام في كليهما: ففي الجوهر الفرد كهاربإيجابية وأخري سلبية وفي الدقائق المادية قوتا جذب ودفع...

وعلى هذا النمط نجد الصفات السلبية التي نبغضها في المجتمع هي في الواقع أشياء لازمة للمحافظة على كيانه باعتباره اجتماعا إنسانيا تنعكس على صفحته صور الصفات الفردية والاجتماعية).

(ج) أنهم اتقوا وخافوا أن تكون ونحن أبناء أولئك العظماء الذين شادوا صروح المدنيات نرضى بالذل تحت أيديهم فنتطلع إلى الحرية والاستقلال فأرادوا أن يشوهوا ماضينا ويقطعوا الصلة بيننا وبين تاريخنا المجيد ليسهل علينا الهوان ولكن هيهات....

لبث قليلا يلحق الهيجا حمل *......

وبعد فدائرة المعارف البريطانية نفسها تنعي على رينان وأصحابه هذا التعصب وتقول: "من صواب الرأي مافعله رينان... بإضافتهم صفات خاصة للجنس السامي هي في الواقع ناشئة عن عوامل خارجة، فهي نتيجة البيئة التي عاشوا فيها، والظروف التي أحاطت بهم، ولو أنهم عاشوا في بيئة أخرى لظهرت لهم صفات جديدة"

الباب الثالث

البابلية- الآشورية

الفصل الأول

البابليون

يجمل بنا بعد دراسة المقدمات العامة التي تناولنا فيها منشأ السامين وخصائصهم ومهدهم الأصلي، والفرق بينهم وبين الآريين، وماتميزت به كل مجموعة من هذه المجموعات اللغوية- أن تأخذ في دراسة كل لغة على حدة بادئين باللغة البابلية الآشورية إذ كانت أصل اللغات السامية، ومنبع حضارتها في نظر الكثيرين من العلماء وقد ذكرنا أنه في أواخر القرون الوسطى عند ما رحل العرب إلى الأندلس وامتزجوا بأهلها كان ممن احتك بهم وأخذ عنهم علومهم وآدابهم وفلسفتهم- اليهود ولاسيما في عهد ابن رشد في المدة التي كان فيها منفيا عندهم، فانكبوا على دراسة اللغة وآدابها ليستطيعوا بتلك أن ينقلوا علومها إلى اللغة العبرية، ليتمكنوا من نقلها إلى اللاتينية، وفي أثناء دراستهم تنبهوا إلى العلاقات الظاهرة بين اللغات السامية فأخذوا في موازنتها حتى أصبحت هذه الأبحاث على ضالتها النواة المباركة التي التف حولها المستشرقون وغذوها بالكشف عن آثار الحضارة القديمة في بلاد العراق ووادي الفرات.

عثروا أثناء هذا البحث على نقوش ورامبد بالقرب من "نينوى"، عاصمة الآشوريين فظنوها آشورية، وأطلقوا لذلك على حضارة العراق قديما لفظ آشورية، ولكنهم أحسوا بعد توالى الكشف أن هذه اللفظة لاتفي بالمراد ولاتوضح المعنى تمام الوضوح فأطلقوا عليها لفظ "بابلية

آشورية"، على أن ما أثر عن البابليين أنفسهم هو أنهم كانوايطلقون عليهم وعلى لغتهم وحضارتهم لفظه الأكادية والذي يعنينا من كل هذه المقدمة أن نذكر أن العراق كان يسكنه قبيلان كبيران أحدهما في الجزء الجنوبي وهم البابليون، والآخر في الشمالي وعرفوا "بالآشوريين"

ويذكر المؤرخون أن هذه البلاد قد تواردت عليها أمم وسادت فيها مدنيات من أجناس مختلفة كل دولة تترك أثرا في البلاد يغير من لهجتها؛ وتحدث فيها أنواعا من اللكنة والرطانة لايستقيم معها بيان، ولا تربو فيها فصاحة، ولهذا قلما تعثر على لغة صحيحة تستطيع أن ترجعها إلى أصل معروف في هذه البلاد، وكل ما يعلم عنها أنها خليط من لغات متباينة تقارب حينا وتتباعد أحيانا كأنها

ملاعب. جنة لو سار فيها سلمان أسار بترجمان

وهذه الظاهرة لا نجد لها شبيها في باقي الأسر التي هاجرت وذهبت إلى الشام من قديم الزمان، وذلك يرجع إلى جملة عوامل أهما:

أنفة الساميين الغربيين أن يمتزجوا بغيرهم من الشعوب التي كانوا يعدونها رجسا وقذارة، وأن حضارة العراق قبل نزول الساميين إليها كانت راقية جدا جذبت إليها كثيرا من الأمم والشعوب الأجنبية مثل الساميين الذين رحلوا عن بلاد العرب وذهبوا إلى العراق وزيفه الخصب المريع.

كان يسكن جنوب العراق قبل وصول الساميين إليه قوم من السومريين ذوحضارة وتجارة وعلوم وآداب لم يكن للساميين عهد بها من قبل، وكانت لغتهم تختلف عن لغة الفاتحين. في اللهجة والخصائص وبعض

الحروف، ويغلب على الظن أنها لغة آرية وذلك لأنها كانت تكتب من الشمال إلى اليمين ولأنها خلت على حسب ما تدلنا الآثار من حروف الحلق والتفخيم المنتشرة في اللغات السامية والتي توشك أن تكون من خصائصها العامة التي تميز بها عن اللغات الآرية.

وقد كان هؤلاء السومريون يكتبون علومهم وآدابهم ولغتهم بالخط "المسماري" وهو عبارة عن شكل مساريوضع في شكل خاص ويضم إلى غيره على هيئات اصطلاحية فيؤدي معني مقصودة وهذا الخط وسط بين الكتابة الصورية الهيروغليفية، والكتابة الصوتية بالحروف الكنعانية الفينيقية.

ولما امتزج بهم الساميون بعد أن غلبوهم على أمرهم سياسيا لم يستطيعوا أن يتغلبوا عليهم من جهة اللغة والآداب بل غلبهم السومريون من هذه الناحية وألجأوهم أن يتعلموا لغتهم وخطهم ليقيدوا بها في هذا الوقت حسابهم وعلومهم ومدنياتهم المختلفة التي استلزمتها حضارتهم الجديدة فكان البابليون في ذلك أشبه بالرومان حينما أخضعوا اليونان لسلطانهم وأخضعهم اليونان لعلومهم وآدابهم.

على هذا بقيت اللغة السومرية منتشرة قوية كما بق الخط المسماري هو المعروف في الدواوين والرسائل نحو ثلاثة آلاف سنة يكتب به البابليون علومهم وآدابهم فأحدث هذا الأمر تغييرفي نطق الساميين: الآن بعض الحروف البابلية السامية كأحرف الحلق والتفخيم وغيرها لم تكن لها حروف تدل عليها في اللغة السومرية والخط المساري ، فكان هذا الخط بمثابة

سبب يقرب البابلية من السومرية على قدر مايبعدها عن أخواتها ومن هذا التراث المقدس الذي كتب بالخط المسماري كانت حاجة العلماء إلى معرفة هذه الخطوط والعكوف على دراسة آداب أهلها وديانتهم.

والمؤرخون مختلفون في معنى كلمة "بابل" حاضرة البابليين والظاهر أن معناها (بابإل) أي مدينة الرب لأن إيل معناها الرب في اللغة القديمة. وقد خفي هذا المعني على كثير من المؤرخين بسبب ما جاء في التوراة في تفسير كملة بابل من أن الرب بلبل ألسنة القوم إذ كانوا يريدون الأمن من التفرق والقوة بالاجتماع في برج شامخ ومدينة كبيرة...

وكانت بابل اسما لأهم مقاطعة في الإقليم على السنة من كونهم ينسبون المملكة لاسم أشهر مقاطعة فيها. وأهم ملوك هذه الأسرة العظيمة (سرجون الأول) الذي تمت على يديه حضارة البابليين وامتدت من العراق إلى فارس شرقا وآشور شمالا والعرب جنوبا وفلسطين والشام غربا وكان عمره هو العصر الذهبي في تاريخ البابلية في عهده استفاضت اللغة البابلية في الجهات الخاضعة لسلطانها وتقرب بها الملوك والأمراء وطلاب الدنيا إلى السلطان فكانت لغة التراسل والتخاطب الدولية إذ ذاك على نتجوز في اطلاق هذا الاسم كما فعل الفرس والروم والترك في اللغة العربية عندما خضعوا لسلطانها " والتاريخ يعيد نفسه " بعد هذا العصر الذهبي خلف من بعده خلف مال إلى الدعة واتباع الهوى حتى تقلص ظل عرشه فثل بيد أسرة كنعانية سامية أتت من (الشام) وأغارت على ملكهم فقضت عليه وأقامت على أنقاضه ملكا صبغوه بالصبغة الكنعانية فأدخلوا كثيرا من العادات والتقاليد التي لم يكن لسكان البلاد عهد بها من قبل

العقائد. الوثنية والتقدم بالقرابين للآلهة والأصنام، واتخاذهم الأوثان أربابا من دون الله...

على أن أهم أثر يذكر للبابليين عامة ، ولهذه لاسرة خاصة هو شريعة حمورابي التي أصبحت الكتاب المقدس لدى الشعوب القديمة البابلية: يتخذها الناس دستورهم في الحياة الاجتماعية والدينية (وكانوا على صواب فيما فعلوا لما يلوح خلالها من رجاحة عقل وإصابة رأي.

وأهم ما تشتمل عليه هذه الشريعة أنها فصلت العلاقات بين الإنسان وغيره من الجماعات أو الآلهة، وسنت القوانين من مدنية وتجارية وجنائية وأحوال شخصية...

وقد صبغه الكهنة بلون من القداسة له من الرهبة والجلال ما للكتب الدينية لدى الشرقيين، أو لشريعة الألواح الاثني عشر لدي الرومانيين القدماء.

وبعد بضعة قرون من هذه الأسرة التي امتزجت بالبلادواصطبغت بها– وثب على عرش بابل قوم من "الكيسانيين" وهي قبيلة أجنبية من القبائل الرحل، فأحدثت رجة في العقول، واضطرابا في الألسنة وفوضي في الحياة الاجتماعية والخلقية لم تعهدها البلاد من قبل، فبينا تعد الأوامر الدينية مهملة لاقيمة لها إذا بك تري حقوق الناس وحرماتهم منتهكة لايرقبون فيها إلا ولا ذمة، كأنهم ليس عليهم في الناس وحقوقهم من رقيب.

هذا وقد علم الملوك نوايا الشعب، وبغضه لهم فأخذوا يسومونه سوء العذاب: يقتلون رجاله ويذبحون أبناءه ويستحيون نساءه حتى ثار ووقعت البلاد في اضطراب عجز الملوك عن تشذيب أطرافه بله استئصاله ،

فاستعانوا بالجنود المرتزقة التي كانت تجلبهم بابل من. كل حدب لإذلال الشعب، وحفظ كرامة العرش وعلى أيدي هذه الدولة البغيضة إلى الشعب كان القضاء المبرم على استقلال "بابل" وحضارتها التي كانت منار العصور التاريخية القديمة، واستولت عليها الأمة الآشورية مستعينة على توطيد سياستها بقوة وحشيه لا هوادة فيها ولا رفق، ولم تلبث أن دخلت في حوزتها فارس والشام وغيرهما.

علي أن دولة آشور لم يكن لها فضل على اللغة والآداب إلافي ترجمة العلوم البابلية وفلسفتها وآدابها وديانتها فاستطاع العلماء بذلك أن يعرفوا مدنية البابليين عن طريق الآشوريين، كما فعل السريان ذلك في علوم اليونان والرومان وفلسفتهم أوائل العصر الإسلامي " فكانت نينوى كعبة العلوم والمعارف "كما كانت "حران " والرقة.

هذا وقد قامت الأسرة "الكلدانية" وهي من قدماء البابليين واستقلت بلادها، وعادت لها مكانتها ولا سيما في عهد "بختنصر" الذي كانت على يديه مأساة الإسرائيليين ونفيهم إلى "بابل" وتخريب بيت المقدس، والهياكل الدينية.

وبانتهاء عصر هذه الأسرة لم نسمع ببابل بعد ذلك، إذ ظهر في الشرق أمة الفرس، ومحت كل معالم الدول الشرقية وأسست على إنقاضها دولة الفرس الشهيرةومماهوجدير بالذكر أن العبرانيين عندما دخلوا "بابل" واستوطنوها وامتزجوا بالأهالي تأثروا. بمعارفهم وآدابهم، فنشأ من ذلك لون جديد في لغة الإسرائيليين وآدابهم حتى كان ذلك عصرا هاما من

عصور اللغة اليهودية.

كما أن اللغة البابلية هي اللغة الشرقية التي احتفظت بالإعراب وأوضاع اللغة السامية الأولى دون أن يتطرق إليها تغيير أو تبديل فهي والعربية صنوان في هذه السبيل– على أن أهم أثر البابليين هو شريعة حمورابي، ولذا يحسن أن نفرد لها فصلا خاصا وان كان ليس من شأننا أن نتعرض لمثل هذا.

الفصل الثاني

"شريعة حمورابي"

ظل الناس يعتقدون أن شريعة موسى أقدم الشرائع حتى أواخر القرن التاسع عشر إذ عثر الباحثون في بلاد السوس على مسلة من الحجر الأسود الصلب عليها نقوش بالحرف المسماري البابلي القديم فإذا بها شريعة حمورابي أصل الشرائع القديمة والقوانين التي أتت بعدها أذ قد جمعت كل معاني الحضارة ونظام المدنيات بأوفى بيان وأقوم سبيل. فعكف العلماء على دراسة هذه النقوش وحل رموزها حتى وفقوا إلى ذلك غاية التوفيق. كتب هذه الشريعة في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وهي تألف من ٢٨٢ مادة مختلفة تتلخص في مباحث أهمها نظام طبقات الأمة، ونظام الزواج، والتبني، وحقوق المرأة وواجباتها، ونظام الإرث والوصية، والعقوبات الجنائية، وقوانين النظام المدني والإداري.

وقد ألف غير واحد من العلماء في هذه الشريعة وتوضيحها وبيان أسرارها وعقدوا بذلك موازنة بينها وبين الشرائع الأخرى التي أتت بعدها بعشرات القرون وبينوا أنها أصل جميع الشرائع على أن الأصل الذي يسهل على الطلاب مراجعته هو كتاب للمسيو "ميشيل في أوائل هذا القرن" ترجمته دار الهلال ونود الآن أن نذكر كلمة عن كل قسم مستشهدين ما وسعنا ذلك بمواد القانون.

(أ) تسبيح الرب

بدأ حمورابي شريعته بتقديس الاله الأعظم، وشكره أن اصطفاه من بين الناس ليبلغ رسالته إلى البشر وليكون واسطة بينه وبين الناس لا قام العدل والمساواة ونشر السلام والحرية وإخراجهم من ظلمات الجهل والتقليد إلي نور الحرية والتفكير الصحيح، كم عدد فضائله ومجهوداته التي تكبدها في سبيل أداء الرسالة، ومبلغ النجاح الذي صادفه في ذلك، ومدح نفسه ما يليق بها من التجلة والاحترام أن أدي رسالته أحسن أداء ونهض بواجبه القدس خير نهوض ثم أخذ يسرد المواد التي أوصاه الاله بتبليغها للناس.

(ب)طبقات الأمة

تتكون الأمة من ثلاث طوائف علي حسب ما كان شائعا في الممالك الكبرى كمصر والهند والمسلمين في العصر الإسلامي وهذه الطوائف في الأحرار من الكهنة والأشراف وحاشية الملك، ثم الموالي من الصناع والزارعين، ثم الرقيق.

ولكل طبقة من هذه الطبعات حقوق وواجبات لتتعدها إلى غيرها على أن الحظوة والامتياز كانا للطبقة العالية إلى حد لا يتناف مع الحرية والحقوق، ولكي يضمن نظام الطبقات من عبث الزمان به نص على أنه لا يصح لأحد أن يستولي على بساتين الضباط وحدائقهم بشراء أو غيره إلا في وصية لابنه أو زوجه أو في دين عليه بعد وفاته، كما أنهم لايذبحون في حقوق مدنية بل تكون الغرامة عليهم مضاعفة، واذا أصابه مكروه في

المصلحة العامة قامت الحكومة بتعويض ما تكبده من الخسائر وتبقي له بساتينه وحدائقه (إن بساتين الضباط ومنازلهم لا تباع بالفضة، وإذا اشتري أحد شيئا منها فالبيع باطل، ويغرم الشاري الثمن، ويرجع العقار الى صاحبه) مادة ٣٦ و٣٧ ألا تري أن هذه تصلح أن تكون استئناسا للأوقاف التي أتت بها الشرائع الأخرى؟

وكان للموالي أن يمتلكوا العبيد والأرضين ويتزوجوا من بنات الأحرار، ولكنهم أقل تبعة في نظر القضاء من الأحرار: فإذا كانت دية الحر إذا مات من جرحة (نصف من فضة) كانت ثلث من المولى، وإذا دفع الحرعشرة شواقل لطبيبه يدفع المولى نصف هذه القيمة، والعبد خمسها (٢١٦ و٢١٧ و٢١٨).

أما العبيد فكانوا يسترقون من أي جنس كانوا لافرق بين بابلي وغيره ويكونون عند مواليهم كالأموال يتصرفون فيهم كما يشاءون في حدود الشريعة. ويلاحظ هنا التطور البديع في نظام الرق الذي كان عاما لجميع الناس في شريعة " حمورابي "، حيث استثني منه اليهودي في التوراة إلا في السنوات الست الأولي، ثم العرب خاصة والمسلمون عامة في الديانة الإسلامية.

(ج) الإرث

توزع تركة الميت على أولاده الذكر مثل حظ الأنثى من بعد وصية يوصي بها أودين (١٦٥) وللرجل حال حياته أن يمنع أحد أولاده من التركة إذا أثبتما يستدعي ذلك، ولا تتقيد الوصية بشخص بل تصح لوارث

وغيره كما أنها لا تحدد بمقدار (١٦٥) والأولاد المتبنون وأولاد الجارية إذا استلحقهم الميت يرثون كالأولاد من الزوجة الحرة سواء بسواه (١٧٠) ولايرث الأب أو الزوج مع الولد (١٦٢) على الرجل أن يفرض لأولاده"حق العروس" للذكر و"المهر"للبنت فيأخذ كل منهما حقه فضلا عن أسهمهما في التركة(١٦٦) وإذا خشي الرجل من بعده على ذرية ضعاف خاف عليهم فان زوجه تأخذ ثلث النتاج من البستان والحديقة في مقابل عنايتها بأولاها (٣٩) فان بلغوا النكاح وآنست منهم رشدا" دفعت اليهم أموالهم بالحق، وأخذت سهما كأحدهم.

ومما تقدم ندرك مدى التشابه بين هذه الشريعة والشرائع الأخرى من بحيث نظام الإرث فانه كما لا يخفى قريب إلى حدكبير.

(١) نظام الزواج

قد جمع البابليون في نظام الزواج بين عادة الشرقين من تقديم "حق العروس" للزوجة، وبين عادة الغربيين من تقديم "المهر " الذي تأتي به المرأة من بيت أبيها، وكلاها ملك للمرأة يحفظان لها إلى وقت الحاجة، فإذا ما تقدم شاب إلى عروس يطلب يدها وأعطاها هدايا فان لم ينفذ العقد فانه لايرجع بشيء مما أنفقه (١٥٠) كما أنهم لا يعتبرون الزواج من غير عقد شرعي (١٢٨). فإذا ما عقد الرجل على عروسه بان حقوق الزوجية شرط لابد منها فإذا خانت المرأة فإنها تذبح وتطرح في الماء، فإذا التجأت إلى شخص آخر وزوجها غائب وليس لديها ما تنفقه على نفسهافإن الشريعة تبيح لها أن تعاشر هذا الرجل معاشرة الأزواج ريثما يعود زوجها فيسترجعها

(١٤٣) فان كان زوجها غائبا في أسر أو نحوه رجعت إليه، أما إن كان فارا من الحرب أو مصلحة عامة فإنها لاترجع إليه، هذا إذا ثبت عليها. ذلك. أما إذا اتهمت بشخص لم توجد مضطجعة معه فانها تقسم أمام الكاهن بالآلهة أنها ما فعلت محرما ثم ترجع إلى زوجها (١٣١) هذا كله إذا لم يقرها الزوج على سلوكها أما إذا رضي منها بهذا فلا شيء عليها مطلقا في كل ما تأتي وتذر.

وليس للرجل أن يتزوج بأكثر من حرة واحدة إلا إذا مرضت وشرط لها أن تبقى في بيته يعولها بقية حياتها (١٤٨)، وكذلك لا يصح له أن يتسرى إلا إذا كانت زوجه عاقرا (١٤٥) ولهذا تقدم الزوجة له جارية لتلد له، وتكون من بعد ذلك حرة في وأولادها بعد موت الرجل.

وكلا الزوجين كفيل للأجر في ديونه التي تقاضاها حال الزوجية، وكذا ما قبلها إلا إذا اشترطا عدم التكافل فيما استدناه قبل الزوجية.

والطلاق عادة بيد الرجل إلا أنه لا يستعمله إلا في وجهه المشروع كما أن للمرأة أن تطلق زوجها أمام القضاء إذا ذكرت أسبابا تبيح ذلك فهي والرجل سواء في تحمل التبعة وخوض غمار الحياة والقيام بالأعمال المختلفة كالبضاعة والتجارة والكهانة...

في العقوبات

العقوبات الشرعية قاسية تقشعر منها الأبدان، وتتزايل لها المفاصل لشدة أخذها على أيدي الجناة: فابسط العقوبات لديهم القتل والذبح وهذا طبيعي في أول الشرائع والأنظمة الاجتماعية لأن عناصر الشر

تتغلب على قوة الخير التي لم يألفها الناس بعد، حيث لم يربوا على احترام القوانين والحقوق الإنسانية، ولهذا عندما ألف الناس ذلك وتعودوا احترام الحريات وكلت الشرائع العقوبات إلى مراقبة الضمير الحي الذي تعهدته التعاليم الدينية بالوعظ والإرشاد كما نجدهواضحا في الديانة الإسلامية، ومبادئها العليا.

في المدنيات

أما نظام المدنيات من بيع وشراء وأمانة وإقراض وإيجارات وغيرها فقد عنيت الشريعة بتفصيلها تفصيلا لا يختلف كثيرا عما هو عندنا اليوم من الإتقان والجودة، وقد استغرقت في ذلك ثلث المواد تقريبا وحسبك أن ترى أن الإنسان إذا تعامل مع صبي أو عبد لغيره من غير أن يحضر شهودا. يعد سارقا ويذبح.

وبعد فقد كنت أود أن اذكر آراء العلماء في المقابلة والموازنة بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة حمورابي ثم أعرج على موقف القرآن، والديانة الإسلامية منها، ولكني وجدت أن ذلك تخرج بي عما رسمته لنفسي في هذه المذكرة وبحسبي أن اذكر حديثا موجزا تبين منه ما كنت أود أن أذكره.

ذكر نيلسن في كتابه "عبادة القمر عند العزب وشريعة موسي" في تعليل هذا التشابه الموجود في الشريعة اليهودية وشريعة حمورابي أن "مدين" قريبة من مصر وهي في طريق التجار اليمنيين إلي الشام ومصر، وكانت الهياكل والمعابد تبني على شكل المعابد المنتشرة في العراق، والعراق واليمن

كلامها تسيطر عليه عقيدة واحدة في شريعة حمورابي، وكان بمدين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد "شعيب" يعبد الله هناك ويتصل بكهان اليمن والعراق إن كان كاهن مدين وشيخ المعابد وبالبيع، وقد جاء في سفر الخروج أن موسى عند ما خرج من مصر اتصل بشعيب هذا، وتزوج ابنته ورعي غنم الحرم وأعقب أولادا، وأخذ عنه أصول الديانة والتعاليم الشرعية التي تلقاها عن كهان اليمين في أصول الشريعة الحمورابيةومما يكن من تعليل هذا الأمر فإنا نجد تشابها بين الشريعتين كما نجده أيضا بينهما وبين الشريعة الإسلامية. ولا ضير في ذلك فمن يدرينا لعلها شريعة سماوية لم يقصصها الله علينا وخصوصا أن حمورابي ادعى أنها من عند الاله، وأنه أوصاه بتبليغها للناس، وقد اشتملت على العقيدة والتشريع. وما رأينا إلى الآن أن شريعة أدعى صاحبها أنها من عند الله بعد الشرائع الكبرى المعروفة إلا شريعة حمورابي هذه.

الباب الرابع

الكنعانية- الفينيقية

الفصل الأول

تحقيق كلمة (كنعان)

في ذلك الوقت الذي نزح فيه الساميون إلى بلاد العراق وأسسوا المدنية البابلية، نزح فريق من إخوانهم الساميين الذين كانوا يقطنون معهم جزيرة العرب "المهد الأصلي" حوالي الألف الثالث قبل الميلاد إلى جهات سوريا وفلسطين وأسسوا هناك حضارة. ومدنية تضارع حضارة البابليين في العراق، وتبرزهم في نواح عدة كما سنرى:

وقد ذكرنا أن البابليين لما نزحوا إلى العراق وجدوها آهله بالسكان غاصبة بالحضارة الخصبة ، ولكن إخوانهم الكنعانيين لما نزلوا سوريا وجدوها خلاء لا أنيس بها، ولا أثر للإنسانيدل على حضارة أوعمارة قبل وصولهم إلى تلك البلاد، ومهما يكن من شيء فقد توطنوا تلك البلاد وأقاموا هناك مدنية عظيمة...

وتنقسم الأمم الكنعانية فريقين كبيرين لكل واحد منهما شأن يغنيه عن الالتجاء إلى الآخر والتدخل فيه ولذلك اصطبغ كل فريق بصبغة أوشكت أن تميزه عن الآخر، وتجعله جنسا مستقلا.

فالقسم الأكبر سكن بلاد سوريا وفلسطين– على السواحل وداخل البلاد. أما الآخر فقد رحل وكون له مستعمرات في شمال إفريقية وجنوب أوروبا وبعض الجزر في البحر الأبيض.

وقبل أن نفصل القول في خصائص كل قسم، وأثره في حضارة الكنعانيين وتاريخهم- أري أن نذكر كملة في تحديد كلمة "كنعان " التي لم يمن لفظ بما منى به هذا الاسم من الاضطراب، وعدم الوفاق في معناه ودلالته التاريخية. والذي أوقع المؤرخين في هذا أن الكنعانيين لم ينوهوا بذكر بلادهم ولا بتاريخ حضارتهم. لهذا لم يكن لدي العلماء شيء يعتمدون عليه في هذا المبحث إلا مصدران قديمان أحدهما عبري والآخر يوناني..

(١) العبري.

كان الناس قدما في مبدأ تكون الحضارات الأولي يطلقون على أنفسهم لفظا يكون بمثابة علم تنضوي تحت لوائه معاني الأمة الاجتماعية أو الطبيعية، ومن هنا نشأت الألقاب وتخير في أوضاعها أن تكون مرآة صافية يتمثل في صاحبها جوهر مدلولاتها.

فإذا ما انتهجت هذا السبيل في بحثك عن مدلول كلمة "كنعان" وجدتها تدل في العبرانية والعربية على معني (الخضوع والانخفاض) وتنفرد الغربية بأنها تدل أيضا بهذا اللفظ على معني "الانقباض والانضمام والتجمع" وقد جري عامة المؤرخين على المغني الأول من غير أن يتنبهوا إلي أن هذا المعني لا يصلح أن يكون رمزا للأمة الكنعانية: لأن بلادهم لم تكن منخفضة متطامنة بل هي على العكس من ذلك جبلية ذات هضاب شامخة، وليس فيها سوى غور الأردن وهو على ما حققه بعض المؤرخين حدث بعد استيلاء الكنعانيين على البلاد بزمنغير قصير في حادثة "المؤتفكات " الشهيرة في بلاد سدوم وعمورة.

كما أنهم لم يكونوا يحملون في أنفسهم معاني الضعف والخور-بل كانوا

ذوي عزة وأنفة واستكبار في الأرض إذن لم يبق لدينا سبيل إلا المعنى الثاني الذي اختصت به اللغة العربية للفظ كنعان وهو "التجمع والانضمام".

وحقا إن اللغة العربية لهي الملجأ الوحيد الذي يركن إليه المؤرخون في تحقيق الألفاظ السامية ولاسيما القديمة منها: فما من معني من المعاني السامية القديمة إلا وأنت واجد له لفظا يدل عليه ونظيرايشبهه في العربية لأنها اللغة السامية الوحيدة التي دونت من أفواه أهلها قبل أن يدخلها التحريف والتبديل بخلاف أخواتها فإنها لم تدون إلا بعد أن اختلط فيها الحابل بالنابل.

ويؤيد ذلك أن الناظر في تحقيق الألفاظ التي تدل على القبائل السامية المختلفة يلاحظ أنها جمعاء تقبل على مبنى "التجمع والانضمام

وهذا طبيعي في الأمم البدوية التي تريد أن تتحضر وتستوطن بقعة معينة تكون فيها ضاحية السلطان والغلبة إذ كان لا يتهيأ لها ذلك إلا بحبل التآخي وعدم التفرق والتنازع خشية أن يفشلوا وتذهبريحهم. (فكنعان) تدل على القوم المتجمعين المتحدين الذين يكونون حلقة واحدة من السلسلة السامية العامة ولهذا سميت البلاد باسمهم وكذلك لفظ "افرايم"يدل على الجمع والانضمام، ولا يبعد أن يكون الجزء الأول من "يسرائيل" الذي هو "يسر " مقلوبا عن (أسر) التي تدل في اللغة العربية على القوة والتجمع فيكون المركب العبراني"يسرائيل" يساوي " إسرائيل" إي عيال الله، وهذا المعني تماما كان يطلق على قريش في الجاهلية لأن كانوا سدنة البيت وخدام الحرم.

ومن الألفاظ العربية القديمة التي تدل على معني التجمع لفظ (عدنان وغطفان وكنانة والرباب وشمر والحبش...) فلا نزلوا بجهات معينة سميت البلاد باسمهم وتوارثها أحقابهم بعد.

أظننا بعد ذلك الاستطراد قد استطعنا أن ندرك صورة واضحة من صور الحياة القديمة لدى الأمم السامية ومبلغ عنايتها بتخير الألفاظ التي تدل عليها والذي يستخلص من رأى العبرانيين أنهم كانوا يطلقون هذا اللفظ على البلاد بعامة، وقد يطلقونه مجازا على أهل الأقاليم الكنعانية مثل (صيدا وصور لأنها موضع السلطان وعاصمة المقاطعات وهذا الخلط ناشئ من نزوح قبائل آرامية: آتية من جراء العرب إلى بلاد سورية فيختلطون بالكنعانيين، ويتكلمون بلغتهم ويصطبغون بصيغتهم، ولكنهم يحملون أجناسهم ونسبهم القديم فيختلط الأمر على الأمم العبرانية حتى لم يستطيعوا أن يميزوا بينهم.. ولولا ماعنيت به الأمة العبرانية من التدوين عن الكنعانيين لأصبحوا اليوم في مجاهل التاريخ.

يوناني:

أما المصدر اليوناني فقد كان يطلق على الكنعانيين لفظ (فينيقيين). ويظهر من أقوال علماء اللغات أن هذا اللفظ (فينيقيين) يوناني لأنه لم يعرف في لغات السامين، وهو يدل على (الحمرة) لأن الكنعانيين كانوا يستعملون الأصباغ الأرجوانية بكثرة في ملابسهم مما كانوا يجلبونها من أصداف بحر الروم.

الفصل الثاني

الكنعانيون وحضارتهم

قد نزل القسم الأول من الأمة الكنعانية في أربعة أماكن ومقاطعات على الساحل، وكان أشهر هذه المقاطعات (صور وصيدا) فقد كانتا تتناوبان الزعامة والسيادة الواحدة بعد الأخرى كما كانتا مركزا عاما لاحتكار التجارة والصناعة القديمة.. ولم تتجل الصفات السامية في قطر من الأقطار بمثل ماتجلت في هذه المقاطعات من التنافر والتحاسد حتى جعل الله بأسهم بينهم فضعف نفوذهم وذهبت ريحهم واستولى عليهم الفرس وأذلوا بلادهم وأخضعهم لطاعتهم وألفوا منهم وحدة طالما نشدها زعماؤهم ومصلحوهم في ظل الاستقلال والحرية فلم يظفروا منها بطائل وهكذا الخلق السامي من قديم الزمن.

ولقد كان فتح الفرس لبلادهم، وتوحيد كلمتهم وتأمين سبل الحياة لديهم من الأسباب الهامة التي ارتقت بها الحضارة الكنعانية وذلك لأنهم وجدوا في البلاد الفارسية أرضا واسعة الأطراف فسيحة الجانب غنية بمواردها الفياضة فأغراهم ذلك على كثرة الإنتاج وترويج بضائعهم في الممالك المختلفة وإنشاء مرافئللأسطول التجاري الفينيقي الذي كان يمخر عباب المحيطات حول المعمورة.

ولكنهم بعد أن ضعف شأن الفرس وتغلب عليهم اليونان بقيادة

الإسكندر ثم الرومان بعد ذلك رأيناهم يذوون شيئا فشيئا ويفقدون حضارتهم القديمة وخصائصهم التي كانت سببا في بلاغهم بين الأمم..

وذلك أن الإسكندر تبني مدينة الإسكندرية ليحول التجارة القديمة من (صور وصيدا) كما فعل البرتغاليون في العصور الحديثة في مدينتي (البندقية وجنوة)، فضعت بذلك نفوذهم التجاري والبحري وجرفتهم سيول الآراميين والعرب والعبرانيين فأفقدوهم كل ما بقي لهم من أسباب النمو والبقاء واندمجوا في غمارهم وطويت صحيفتهم الاستقلالية من عالم الوجود.

أما القسم الآخر فقد نزل المستعمرات في شمال إفريقية وجنوب أوربا وجزر البحر الأبيض. وكانوا في صراع دائم مع اليونان والرومان واستطاعوا في أوقات كثيرة أن تكون لهم السيادة على البحر الأبيضبأذلالهم لممالك أوربا الجنوبية ولاسيما في عصر(هينبال) أعظم قائد في العصور القديمة ولقد ساعدهم على ذلك توحد كلمتهم وانضواؤهم تحت لواء رئيسهم فأصبحوا يدا واحدة على من سواهم.

أما وقد أخلدوا إلى الراحة والسكينة فقد عاودهم العرق الدقيق فتنازعوا ودبت بينهم عقارب الفتنة حتى أخضعهم الرومان واندمجوا في الجنس الآري إلى يومنا هذا.

فإذا كانت الحياة العقلية أساسا طبيعيا يستند إليه كل نوع من أنواع الحياة العامة وتشاد عليه دعائم كل فرع من فروع الشئون الحيوية فأجدر بنا أن نتعرف حالة الكنعانيين العقلية لنستنبط من ذلك حياتهم وشؤنهم

الحيوية وما يتبع ذلك من العلوم والصناعات.

لقدكانتفلسفة الكنعانيينالمتوارثة لديهم عن آبائهم الأقدمين أن مظاهر الطبيعية المختلفة ولاسيما العالم السفلي منه إنما تمثله أرواح تسكن على سطح هذه الأرض وعلى قمم الجبال وشم العوالي على عكس ما كان يعتقد البابليون من أن آلتهم تسكن الأفلاك والعالم العلوي فاتجهوا إلى الأفلاك وعلومها كما سبق بخلاف الكنعانيين فانهم اعتقدوا أن آلتهم تهيب بهم من آن الآخر أن يثيروا الأرض ويعمروها ويقدموا نتاج محصولها المبكر إلى المعابد والآلهة والهيا كل تقربا إليها واستدرارا الرزق واستدامة لنعمة الآلهة عليهم.

وقد دعاهم هذا النظر إلى أن يعيشوا بالحرث والنسل والزراعة والحيوان فكانت بلادهم من أخصب بقاع العالم ومن خير ما تجود به بلاد زراعية. ولما كثرت لديهم المحصولات وكانوا أما بحرية تقطن السواحل. والجبال في بلادهم تنبت الأعشاب الصلبة الطويلة إلى يومنا هذا حداهم ذلك إلى إنشاء السفن ليسيروا بها في عرض البحر وأطراف المالك يوزعون منتجاتهم ويستبدلون بها منتجات بلاد أخري فكانوا هم واسطة التبادل التجاري وعقد المواصلات البحرية في الزمن القديم كما كانوا سببا في نقل العلوم والمعارف إلى الجهات التي كانوا يذهبون إليها.

ولقد أثر فيهم الخلق التجاري وما يستتبعه من العقل الرياضي المنظم إلى أن يتخلصوا من قيود الكتابة الصورية الهيروغليفية والكتابة المسمارية البابلية لما كانا يستتبعانه من ضياع الوقت وعدم الضبط وما يستتبع ذلك من الأمور التي تأبها طبيعة التجارة من سرعة الوقت وضبط الكتابة وتحديد

دلالتها ومعانيها محافظة على الأموال والمواعيد- دعاهم ذلك كله إلى أن يخترعوا الحروف الأبجدية الصوتية ويختزلوها من الكتابتين القديمتين (الهيروغليفية والمسمارية). تجد ذلك واضحا في أسماء الحروف الأبجدية التي اخترعها الكنعانيون فان كل حرف منها يدل على معني من المعاني بمفرده، فمثلا: نون: حوت، عين: عين، كاف: كف اليد، ميم: ماء، شين: سن. فكأن هذه الحروف أصبحت رمزا وبدلا عن صورها الأصلية ولسهولة مأخذها وموافقتها لطبيعة التقدم والارتقاء أصبحت كتابة العالم بأسره ومصدرا لجميع الخطوط التي شاهدها الآن من الآرية والسامية مع تعديل يوافق طبيعة كل إقليم وأهله. وبهذا الاختراع وحده نالوا حظا من الشهرة والقداسة التاريخية لم تحظ به أمة سواها لأنهم قدموا للإنسانية أعظم أثرتدون به آدابها وعلومها بسهولة ودقة وكذلك اضطرتهم الأعمال التجارية إلى اختراع الأعداد الحسابية التي استفاضت في جميع العالم وهذبها الهنود من بعدهم.

هذا من جهة علومهم وصنائعهم أما من جهة تأثيرهم الديني، فقد كان بالغا غايته من الرقي إذ ذاك فقد عرفنا أن مظاهر الطبيعة مثلها: أرواح مقدسة تقطن هذه الأرض فتراهم يتقدمون إليها بالقرابين ويتوسلون إليها بأنواع الزلفي ويرتلون أدعية خاصة مما كان له شأن وتأثير كبير في عقلية الأمم الوثنية من السنامين الذين أتوا بعدهم حتى إنك تستطيع أن تدرك لكل مسألة دينية غامضة لا تفسير لها في الديانات- حلا وأصلا من عادات الكنعانيين واعتقادهم.

وقد يأخذك العجب أن ترى الأمة الكنعانية على ما وصلتإليه من

الرقي والعلوم لم تدون شيئا عنها كما فعل إخوانهم سكان المستعمرات. ولهذا نرى كثيرا من المستشرقين الآن يعنون بالبحث عن آثارهم مستبعدين أن تكون تلك الحضارة وهذه المدنية الراقية قد نفت هباء دون أن يكتبوا عنها شيئا تستضئ به الأجيال المقبلة لهذا لا نستطيع أن ندرك حقيقة اللغةالكنعانيةلأنها لم تدون ولان الآثار التي عثر عنها الكاشفون لم تهد العلماء إلى حل صحيح يعتمدون عليه.

على أن الذي لا شك فيه أنها قريبة الشبه. جدا بالبابلية فيما يدل على أنهما. كانتا قريبتين قبل نزوجهما عن جزيرة العرب. وزاد هذا الأمر لكنا اختلاط كنعانيين ببلاد العراق واستيلائهم علي، كثير بين حضاراتهم، وذوبان المفردات الكنعانية في اللغة الآرامية والعبرية ومهما كانت قريبة الشبه بالبابلية فلن يبلغ ذلك مبلغ قربها واتصافها بالعبرية والسريانية فأقرب الظن أنها إما أن تكون أصلا من أصولها وهذا ما عليه كثير من علماء اللغات.. وإما أن تكون هي والعبرية قد اشتقتا من أصل واحد لارتباط الكنعانيين بالعبرانيين من جهة الجوار والمصالح الاجتماعية المختلفة التي وحدت بين الأمتين.

الباب الخامس

اللغة العبرية

الفصل الاول

كلمة (عبري) العبرانيون

لعلك إذا ما بحثت عن تاريخ الأمم القديمة ومبدأ حضارتها لن تجد أمة من الأمم اختلف المؤرخون عليها كما اختلفوا على الأمة العبرانية.

ولعل من أمتع هذا الاختلاف الذي مني به العبرانيون من قديم الزمن أنهم لم يتفقوا بعد على تحديد كلمة (عبراني) والمعني الذي يرمي إليه والأشخاص الذين يطلق عليهم فكأنهم قد باءوا بمحنة التاريخ فوق ما ابتلوا به من التشرد في طول البلاد وعرضها ، ولعل السبب الذي اضطر هؤلاء المؤرخين إلى الخلط والتشكيك في تحديد هذه الكلمة إنما هو كثرة المصادر المختلفة التي عنيت بالكتابة عن العبرانيين. فبينا نجد المصادر العبرية تخبرنا أن العبرانيين هم القوم الذين رحلوا من بلاد العراق الكلدانية وعبروا النهر مع سيدنا إبراهيم ودخلوا بلاد كنعان– تراها في موضع آخر تنسبهم إلى (عابر) وهو الجد الخامس لهذه الأسرةعلى حين نجد فريقا من العلماء المحدثين قد أرجع أصل معناها إلىالعربي القديم وهو (عبر الفيافي والقفار: قطعها) وأتي على ذلك بأدلة تاريخية تثبت أن العبرانيين كانوا يعرفون بهذا الاسم في عهد البداوة والخشونة ، فلا تحضروا ونزلوا المدن والأمصار أنفوا أن يطلق عليهم هذا الاسم الذي يذكرهم بعهد البداوة والتيه فاختاروالهم لقب "إسرائيل" واعتزوا به.

وكذلك تجدهم يختلفون على منشئهم: فطائفة كبيرة من أجبار اليهود

يرجعون نسبهم ومنشأهم إلى بلاد الكلدان يستدلون على ذلك بما جاء في التوراة، ومنهم من يرى أنهم كإخوانهم السامين نشئوا في الجزيرة العربية ثم رحلوا منها إلى بلاد الشام كما فعل الكنعانيون من قبل في زمن لا يزال في طي التاريخ كما أنهم لا يستطيعون أن يحددوا المكان الذي نزل فيه الساميون من بلاد العرب ولا الحادث الذي اضطرهم إلى الهجرة متحملين مرارة السفر وتجشم المخاطرات واستدل العلماء على ذلك بأن كثيرا من الأسماء العبرية القديمة تمثل لونا من ألوان الصحراء العربية وحياتها الساذجة الهادئة: فتشبيهاتها وخيالها وطابعها تمثل حياة البداوة أبلغ تمثيل فمن مفرداتها التي لا تجد لها نظيرا في الكلدانية (السعد– عبد الله– حفني– علي– نبط– عفراء) وغيرها من الأساليب مما تجد أكثره في سفر القضاة) على هذا فالعبرية فرع مستقل كأخواتها البابلية والكنعانية

الفصل الثاني

ملخص تاريخهم ما ورد في كتب اليهود

أ) يبتدئ تاريخ العبرانيين من خروجهم من بلاد الكلدان في العراق ونزوحهم إلى حران، ثم ذهابهم إلى الأرض المقدسة بلاد الشام، ثم ذهابهم إلى مصر بعد قصة يوسف عليه السلام وإقامتهم هناك وقد ورد هذا في سفر التكوين).

ب) ثم يأتيهم دور آخر كان له أكبر الأثر في حياتهم وهو خروجهم من مصر برأسه موسي عليه السلام، ومكثهم في الصحراء مرة التيه، واصطفاء الرب لهم بالوصايا العشر المحفوظة في الألواح المقدسة (سفر! الخروج، والعدد)

ج) ثم يمر عليهم دور آخر كانت السلطة السياسية والدينية فيه بيد رؤساء العشائر المسنين (بالقضاة) إلى حوالي سنة: **١٠٤٠** ق.م (سفر القضاة)

د) ثم يبتدئون عصرا جديدا في الحضارة والملك على يد شاءول (طالوت) الذي حارب الكنعانيين وقتل ملكهم (جالوت) وأسس له مليكا كبيرافي أرض كنعان (السفرالأول من المملوك) ثم يأتي بعده داود وابنه سليمان ولي عهدها تبلغ الأمة الإسرائيلية ذروة المجد والمدنية مما دعا كثيرا من المؤرخين أن يحيطوا حياتهما ولاسيما لأخير منهما بكثير مناالخرافات مما يدل على أنه كان من الأفذاذ الذين وهبوا ملكا وسلطانا لا ينبغي لأحد من. بعده

وينتهي عصر هذه الأسرة سنة **٩٣٣** ق.م (السفر الثاني من الملوك).

(هـ) وبموته انقسمت المملكة الإسرائيليةقسمين: فالشمالي منها سمي(بالأسباط) ونزل بلاد سوريا وكان بأسهم بينهم شديدا حتى أغار عليهم ملك آشور سنة **٧٢٢** ق.م وأزال ملكهم وأسس على أنقاضه دولة السامرينوالجنوبي سمى بمملكة يهودا، وقد بقيت بعد أختها حتى سنة **٥٨٦** ق م حيث غزاها بختنصر، وهدم البيت المقدس والهياكل الأثرية، وأسر الأهالي وأجلاهم إلى "بابل " وهو السبي الشهير عند اليهود

(و) وفي سنة **٥٣٩** ق.م عادوا إلى فلسطين بأمر "كورش" ملاك الفرس الذي استولى على بابل، وأسقط دولة الكلدان فأخذوا يصلحون ما أفسدته القوة الغاشمة من عمائرهم، وهياكلهم تحت طاعة الفرس، وسلطانهم إلى أن استولى عليهم اليونان وغلبوهم على أمرهم بقيادة الإسكندر ذي القرنين سنة **٣٣٣** ق.م.

وخلف الإسكندر على فلسطين ملوك مستبدون ساموا اليهود سوء العذاب ، وأرادوهم على السجود لأصنامهم طغيانا وتجبرا فنالهم من ذلك عنت شديد من ملوكهم، وفتنة كبيرة في دينهم حتى استولي الرومان عليهم في القرن الثاني قبل الميلاد فكان على أيديهم القضاء المبرم على دولة بني إسرائيل سنة ٧٠م فتفرقوا أيدي سبأ ومزقوا كل ممزق في طول البلاد وعرضها.

هذا ونعلم أن إبراهيم عليه السلام خرج ومعه ابن أخيه "لوط" وكذلك أعقب مع اسحق "أسماعيل" وأعقب اسحق مع يعقوب ولدا يسمى "عيسو" فكان لكل من لوط وإسماعيل وعيسى وقبائل وشعوب تقطن جهات مختلفة

وتميز عن الإسرائيليين في الحضارة والمدنية فكان من نسل لوط قبائل "عمون ومؤاب" في شرقي الأردن من أرض خصبة هناك ساعدتهم على إنشاء مملكة متحضرة تضارع ملك بني إسرائيل وتفوقه في القوة الحزبية كما كانت لغتها هي العبرية والخط المنتشر بينما هو الفينيقي العبري.

وكان من نسل إسماعيل قبائل (العرب) المعروفة وكانت مساكنهم في بلاد الحجاز من طرق القوافل التي كانت تسير بين سينا ومصر ولذلك نراهم يقومون بنقل البضائع التجارية بين مصر وسوريا والعراق من قديم الزمان.

كما كان من أقرباء بني إسرائيل أهل مدين سكان شواطئ البحر الأحمر من شمالي الحجاز. وكان من نسل عيسو قبائل" أدوم" التي كانت تسكن (طور سينا) وحاضرتها آيلة "العقبة" وكانوا في صراع مستمر مع اليهود من جهة السياسة والدين وانجلت الحال بفنائهم في اليهود من الشمال، والغرب من الجنوب، والنبط من الشرق.

هذا وكل القبائل التي تفرغت عن (إبراهيم) قد فنيت ما عدا بني إسمعيل وبني إسرائيل ويرجع السبب في فناء هذه القبائل إلى موقع بلادهم الجغرافي بين أكبر قوتين تمر فيها التاريخ القديم وهما بابل وآشور شرقا، والمصريون غربا فكانت ميدانا للحروب المستمرة التي أصلتهم نارها وتركتهم رمادا تذروه الرياح.

الفصل الثالث

تاريخ اللغة العبرانية

كانت لغة العبرانيين في عصرهم الأول خالية من الرطانة الأعجمية ..تظهر عليها مسحة من سذاجة الصحراء وجمال الطبيعة وجودة الخيال والميل إلى الإيجاز كما كان إخوانهم في العرب الجاهلين ، لأنهم كانوا أمة بدوية تتجه عصابيتهم إلى القبيلة ورئيسها تتنقل في الصحراء بحيوانها وأنعامها تنتجع الكلأ وتتلمس مواقع الغيث والحيا، يعدون أنفسهم أبناء الله ورسله وما عداهم من الأمم رجسا وقذارة لا يقتربون منهم ولا يأكلون ذبائحهم ولا ينكحون نساء هم فأدى ذلك إلى. صفاء اللغة وخلوها من الدخيل.

وفي عهدهم الثاني من الحضارة والملك تعقدت الحياة لديهم واتسعت رقعة السلطان فيهم، واتخذوا ألوانا من المدنية لم يكن لهم بها عهد، واختلط بهم كثير من الشعوب الكنعانية فاكتسبت اللغة بذلك فراهة وقوة كما امتازت بان حضارتها كنعانية إلى حد كبير حيث أخذوا عنهم نظام السياسة والعمران، وبناء الهياكل، وقلدوهم في كثير من عوائدهم الاجتماعية والدينية فتأثروا بذلك. أما تأثر وما أنهم تعلموا منهم الكتابة والخطوط الفينيقية التي دونوابها معلوماتهم وكتبهم المقدسة التي انتشرت في ذلك العصر انتشارا كبيرا ويشبه هذا العصر عصر صدر الإسلام وبني أمية في اللغة العربية.

أما بعد سبيهم فقد استقبلوا عصرا كان من أهم الأسباب في تغير أوضاع اللغة ومقاييسها وآدابها ، فأدى ذلك إلى أنك تلمح في لغتهم وأسلوبها مفردات قد تسربت إليهم من الأمم الآرامية المنتشرة في وادي الفرات. وذلك طبيعي إذ أن البابليين أمة راقية ذات تاريخ وسلطان فتسرب من عاداتهم ولغتهم وآدابهم إلى الأمة الضعيفة المسلوبة شيء كثير وحدث من هذا التلاقح الفكري آثار من العقائد الدينية والفلسفية كان لها أثر كبير في حياتهم على أنهم قد أخذوا الخط الآشوري المربع بعد تحويره وصقله على هيئة تستقيم وأوضاع لغتهم كما أنا نري أثر هذا العصر في مراثي اليهود وعبراتهم التي هي دماء قلوبهم تندي بها أفواههم فاحدث في اللغة رقة وأريحية لم تجد لها نظيرا في أدوارها، ومن أهم آثار هذا العهد دخول الأساليب الآرامية التي عمت الشعب اليهودي حتي أوشكت اللغة القديمة أن تستغلق على بعض الرهبان أنفسهم فقصروا العبرية على العبادة والصلاة واتخذوا الآرامية لغة التدوين والتأليف.

هذا وفي العصر اليوناني تري شمس العلوم تشرق على ربوع اليهود فتبدأ الأفكار تنحو نحو الفلسفة والمنطق والحرية الدينية التي عمت الشعب الإسرائيلي. فهال هذا الأمر علماء الدين فأخذوا يعظون الناس بلهجات ملؤها الحجج المنطقية والمقاييس العقلية على حين كانوا: يعظونهم بآيات الكتاب وفتاوى الرهبان فلم يزدهم ذلك إلا استرسالا في الملذات ونبذ التعاليم الدينية ظهريا فتمخضت تلك الحال السيئة عن أعلام أخذوا يوفقون بين نصوص الدين ونظريات العلم وهذا يشبه العصر العباسي في اللغة العربية.

وبعد أن تشتت اليهود على وجه البسيطة أصبحت لغة كل

منهم توافق لغة البلد الذي جاءوا فيه.

فمن بقي منهم بالشام والعراق كانت لغته الآرامية (لغة اليهود المتأخرين) ومن ذهب إلى مصر أو اليونان كانت لغة اليونانية: ومن ذهب إلى الجزيرة العربية كانت لغته العربية الفصحى كالسموءل ابن عاديا وشريح بن عمران وغيرهما.

هذا ولما انتشرت اللغة العربية في مشارق الأرض ومغاربها بانتشار الإسلام اتخذها اليهود لغتهم التخاطبية في جميع الأقطاروعكفوا على مدرستها وترجمة الكتب المقدسة إليها.

وفي القرن العاشر أخذوا في إحياء كتبهم ولغتهم العبرية. ونقل كثير من الآداب العربية إليها حتىانتشرت اللغة واستجابت لهم.

وها نحن أولاء نرى هم كتبا وجرائد تصدر بلغهم البرية إلى يومنا هذا .

الفصل السابع

الكتب الدينية

تتألف الكتب الدينية لدي اليهود من قسمين كبيرين الكتاب المقدس وهو: الموحى به على لسان موسي وغيره من الأنبياء ويقال له "مقرا" من كلمة قراءته. ما تجب قراءته (لاحظ التشابه بين هذا. اللفظ ولفظ "قرآن"، والتلمود وهو يتضمن الأحكام والسنن والتعاليم التي لم يرد ذكرها في التوراة ومعناه التلمذة أي التعليم.

العهد القديم

يتضمن هذا الكتاب تاريخ الإسرائيليين والقبائل المتصلة بهم وعاداتهم وشرائعهم وعقائدهم... وهو يعد أعظم أثر للغة العبرية من حيث أسلوبه وما تضمنه من الأحكام. والعقائد وقد جمع هذا الكتاب في أوقات مختلفة كما يتضح ذلك من لغته فبينا ترى شيئا كثيرا من عهد البداوة القديمة إذا بك تجد فيه مدنية وحضارة في قرونهم المتأخرة ولاسيما في عهد أسرة "المكابيم" في النصف الثاني من القرن الأول حيث تم في عهدها تأليف هذا الكتاب باللغة العبرية، ثم ترجم إلى لغات العالم أجمع. وأقدم ترجمة في الترجمة اليونانية فقد ذكر المؤرخون أن بطليموس ملك مصر طلب إلى اليهود أن يرسلوا أحبارا من عندهم ليترجموا الكتاب المقدس إلى اليونانية فأرسلوا إليه اثنين وسبعين حبرا من كل سبط ستة أحبار فجعلهم بطليموس

زوجين زوجين وفصل بين كل اثنين ثم أمرهم جميعا بالترجمة فجمعت لديه ستة وثلاثون نسخة يونانية قابل بينها حتى اختار نسخة حفظت في المتحف الإسكندري، ومن اليونانية ترجم إلى اللاتينية في عهد الرومان، ومن اللاتينية ترجم إلى جميع لغات أوربا الحالية.

ينقسم العهد القديم إلى ثلاثة كتب كبيرة مميزة بعضها عن. بعضويرمز لهذه الثلاثة بلفظ (تنخ) فالتاء الأولى من اللفظ تشير إلى التوراة وفي الكتاب الأول، والنون تشير إلى الأنبياء والكاف إلى المكتوبات.

(١) التوراة .. وهي أهم كتاب تشريعي تحوي ما نزل على موسي عليه السلام من الشرائع والوصايا وهي تشمل خمسة أسفار:-

أولا- التكوين: وهو يتضمن قصصا شهياعن حياة الأنسان الأول ومبدأ الخليقة والتكوين، وتراه يذكر النظريات الفلسفية في تحول العالم. وتدرجه: من بناء السماوات ودحوالأرضين، وانفجار الغمر، وخلق النور وكيفية إنشاء البحار واليابسة، ثم وصف الأيام الستة التي خلق: فيها العالم وما كان يصنعه في كل يوم حتى تم بناء الكون، ثم ينتقل بعد ذلك إلى حياة أدم وأولاده وتاريخهم ووصف حياتهم الاجتماعية إلى عهد إبراهيم، ثم يستفيض في ذكر إبراهيم وحياته والبلاء الذي لحقه بالبلاد التي نزل بها، ثم يصف كيف انتقل المهد إلى اسحق ثم إلى يعقوب، ثم يصف لك حياة هذه الأسرة إلى أن انتقلت إلى بلاد- مصر مع يوسف على أثر حادثته التي تجدها مفصلة واضحة: هناك وهذا ولفظ "التكوين" إنما هو من وضع الترجمة اليونانية ، وليس موجودة في النسخة الأصلية

للتوراة.

ثانيا: سفر الخروج: وفيه حديث مسهب عن حياة الإسرائيليين في بلاد مصر، وكيف كان الفراعنة يسومونهم سوء العذاب، وكيف نشأ موسى في هذا العهد العصيب، وكيف كانت تربيته. وحادثته مع فرعون والقبطي، ثم يصف خروج موسى إلى مدين واجتباء الرب إياه ليكون رسولا إلي فرعون وقومه أن علوا في الأرض واستكبروا. فيها، ثم يصف تبليغ الدعوة إلى فرعون والمجادلات والمعجزات التسع وكيف احتال موسي علي بني إسرائيل حتى أخرجهم من مصر وكيف التحق به فرعون ونجاموسى وغرق فرعون ومن معه وكيف اختار موسي قومه سبعين رجلا لميقات ربه، وكيف نزلت عليه الألواح المقدسة التي كانت تشمل الوصايا العشر الآتية (من الإصحاح العشرين من سفر الخروج) وهي أساس الشريعة اليهودية:

*أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرضمعمر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخري أمامي.

*لا تصنع لاك تمثالا منحوتا ولا صورة مايا في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبد هن لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأصنع إحسانا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي.

*لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا.

* اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما

اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلاك الذي داخل أبوابك لأن في سبتة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه

* أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك

*لا تقتل

* لاتزن

*لا تسرق

*لا تشهد على قريبك شهادة زور

*لا تشته بيت قريبك. لا تشتهامرأةقريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولإحماره ولاشيئا مما لقريبك.

ثالثا– اللاويين : ويشمل العادات والوصايا والرسوم التي يتخذها الشعب في الضحايا والقرابين.

رابعا – العدد : وهو يحتوي على وصف مسهب لحياة بني إسرائيل في التيه والنقباء (الاثني عشر) ومراحلهمالمختلفة في البرية وكيف كان ينبجس الماء من الحجر على عدد أسباطهم، وكيف كان ينزل المن والسلوى.

خامسا– التثنية : وتشمل التعاليم والنصائح والأحكام التي كان يرشد. بها موسى قومه زيادة على مافي الصحف المنزلة وبهذا ينتهي ما نزل علي موسي.

(٢)الأنبياء:وهذا السفر قد دون كل ما فيه بعد تحضرهم وتمدينهم في

زمن ملوكهم الأول وهو يشمل قسمين، أحدهما تاريخي محض وهوذكر الملوك الذين تولوا حكم الشام إلى تشتت الإسرائيليين في الاسر البابلي. وأهم ملوك هذا العهدداود وسليمان وغيرها والآخر أدبي محض يشمل على كلام الملوك وأمثالهم وحكمهم وتجاربهم.

(٣) المكتوبات : وهو الذخر الثمين الذي تعتز به اللغة العبرية وآدابها وهو يحتوي على تسابيح داود وتمجيداته للرب بأسلوبه اللذيذ الذي تري فيه ازدواجا ملاءمة تذكرك بجرس الشعر العربي وحسن موسيقاه كذلك يحتوي على أمثال سليمان بن داود وحكمه وتجاربه وكذلك تحتوي على تاريخ أيوب وما ابتلاه الله ومحاورة إبليس له، ومجالسه الفلسفية العميقة مع أصحابه.

هذا ويحمل بنا أن نذكر كلمة مجملة عن كتاب "الجامعة" (وأيوب) لاتصالهما الوثيق بآدابنا العربية واختلاف العلماء فيهما.

محمد صلى الله عليه وسلم في التوراةوالإنجيل

ينص القرآن في غير موضع من آياته أن مُحَّدا ﷺ يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، ولكنه لم يبين لنا: على أية صورة نجده أهو مذكور صراحة أو ضمنا؟ ولهذا نحن نميل تصديقا للكتاب إلى أن " مُحَّدا " ذكر ضمنا في ثنايا الكتب المقدسة القديمة .. وإليك بعض هذه الأدلة نقلا عن رسالة أبي الربيع القسطنطيني ملك الروم كما وردت في " عصر المأمون ".

(أ) سأقيم لهم من إخوتهم مثلك أجعل كلامي على فهمه، ولا يتكلم إلا بما أمره به) ... (أجعل كلامي على فمه كي يعني به. أي لا يقرأ ولا يكتب التثنية إصحاح (١٨) آية (١٥).

فمن إخوة. بني إسرائيل إلا بنو إسمعيل؟ ولو كان يعني واحدا منهم لقال: (أقيم لسم نبيا منكم). فان قلتم: إنما أراد بقوله "أخوتهم أنفسهم فما تقولون ما جاء في التوراة مثل موسى بني إسرائيل لا يقوم.

(ب) (جاء الله تبارك وتعالى من طور سينا، وأشرف من ساعير، واستبان واستعلن من جبال فاران...) ومعني ذلك أن الله أنزل التوراة على موسى في طور سيناء، والإنجيل على عيسى في جبل ساعير وهو بالشام، والقرآن على مُحَّد في جبال (فاران) وفي بلاد مكة (بنا موسى أوصانا موسي

ميراث الجماعة (يعقوب). التثنية إصحاح (٣٣) آية(٢).

(ج) (أنصبت رحمة على شفتيك من أجل ذلك باركتك الدهر. تقلد السيف على الأمم أيها الجبار بالقتل والأسر والسباء... أقتحم أركب من أجل الحق والبر- تريك يمينك مخاوف. ذللت الأشياء سيفك... ونبالك مسنونة في قلب أعدائك. شعوب تحتك ينقطون). مزامير إصحاح (٤٥) آية (٣).

فأي نبي كان على الأمم جبارا، ولهم بأذن الله قتالا إلا نبينا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم.

(د) (عبدي الذي وجب به حبي الذي بشرت به نفسي أفيض عليه روحي يوصي الأمم بالوصايا لا يضحك ولايسمع صوته في الأسواق، ويفتح العيون العور، ويسمع الأذان العمومي القلوب الغلف، وما أعطيه لاأعطى غيره. (أحمد) يحمد الله حديثا تمليله يأتي من أقصى الأرض يجوز الماء بشدة أمواجه... سكانها بحمدون الله على كل شرف ويكبرونه على كل رابية). أشعياإصحاح (٤٢) آية (١) - (١٠). (هـ) (صدقو الرب وسبحوا.. الذي هلاله الصالحون. ليفرح إسرائيل بخالقه، ويتوب صهيون من أجل أن الله اصطفي (له) أمته، وأعطاه النصر، وسدد الصالحين بالكرامة. يسبحونه على مضاجعهم ويكبرون الله بأصوات عالية بأيديهم سيوف ذات شفرتين لينتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه، ثم يقيد ملوكهم بالقيود، وأشرافهم بالأغلال). المزامير إصحاح (١٤٩) آية(١).

فأيتما أمة يكبرون الله بأصوات عالية، وآذان الصلوات الدائمة،

وعلى كل شرف، وعند كل حرب، وأينما أمة كانت سيوفها ذات شفرتين إلا أمة مُحَمَّد ﷺ؟

وجاء الله من السماء، والقديس من جبال فاران، وامتلأت السماء من تحميد (أحمد) وتقديسه ومسح الأرض بيمينه وملك رقاب الأمم)(تضيء لنوره الأرض، وتحمل خيله في البحر). حقوق إصحاح (٣) آية (١٥).

فإلى من ينحو هذا القول، وإلى أين يذهب بهذا المعنى؟ لئن ذهب. به إلى غير من تحمل خليله في البحر، وبدأ من جبال فاران أمره وغلب على الأرض.. لقدتركتم الحق وأنتم تعلمون.

(ز) (اللهم ابعث جاعل السنة كي يعلم الناس أنهم بشر) أي كي يتبين الناس أن عيسى عليه السلام إنسان ، ولسنا نعلم نبيا وضع سنة تنسب إليه إلا مُحَمَّدا ﷺ. أما عيسى فانه نصب سنة موسى عليه السلام

سفر الجامعة

أما سفر الجامعة ، فيتحدث إليك فيه بطل من أبطال بني إسرائيل اعتزل الحكم والسلطان بعد تدخل اليونان والرومان في أمرهم، وكون لنفسه عقيدة وفلسفة ومذهبا في هذه الحياة: بدأ يسخط على الإنسان، ويقرر أن الشقاء الأكبر في هذه الحياة إنما جاء من الناحية العاقلة التي جعلها الله الميزان الحساس لآلام الدنيا وشدائدها وينصح للذين أغوتهم الحياة الدنيا بزخارفها إلا يركنوا إليها وألا ينبذوا التعاليم الدينية وراءهم ظهريا لأن هذا يرديهم وينزل بهم إلى حضيض الجهالة كما أنه ينصح للناس أن يستشعروا السعادة وإن لم يكونوا سعداء لأنه في تلك راحة القلب

وسعادة الضمير.

وتلمح بين ثنايا هذا الكتاب أنيناحارا وشكاة مرة من فساد الزمان والأخلاق، واستهتار الناس بالدين، وانكبابهم على الإلحاد والزندقة وبعد أن أعيته الحيل رجع يقول الناس تمتعوا ما شئم بالحياة من غيرإسراف ولا تورط في الشهوات.

ويظهر أن اليهود كانوا منغمسين إذ ذاك في مجون اليونان وعبثهم فقام هذا الواعظ الشاك المتحير يبدي لونا من الفلسفة لم يكن للناسي عهد بها من قبل وهي في مجملها تمثل عصره تمام المثيل.

سفر أيوب

بري بعض المؤرخين أن هذا السفر كتب في بلاد العرب اليمنيين في القرن العشرين قبل الميلاد، وكان منظر ما شعرا كما نظمت الإلياذة تم ترجمه اليهود إلى العبرية نثرا وأدخلوه ضمن أسفارهم المقدسة ثم ضاع الأصل العربي كما ضاع أصل كليلة ودمنة الفارسي. ويستدلون على ذلك بكثرة الأسماءالعربية التي كانت مألوفة في عهد الجاهلين، والتي تلمس فيها رهبة الصحراء وجلالها، والتي هي أقرب إلى اللغة العربية وأوضاعها: أليس أيوب مشتقا من آب يئوببمعني رجع؟ وهذا معناه في اللسان العبري، ثم ابحث في شخصية أصحابه الذين أشركهم بعه في محاورانه "فلسفية. أليس (اليفانز) التيماني من تيماء وهي ببلاد العرب وبلاد الشوحوصوفو النعماني كذلك؟ ثم هذه النظريات العامة الشاملة التي ماعهدناها إلا في العرب الجاهلين، على أن المحققين لا يرون هذا الرأي لوجود النظريات الفلسفة الدقيقة

والتعاليم الدينية التي لم يكن للجاهلين عدها. ومهما يكن من شيء فهو فكرة غالية من المثل العليا التي تمثل الصراع بين الخير والشر وبين الرذيلة والفضيلة. وبين النفس الأمارة بالسوء والنفس المطمئنة إلى ربها.

يمثل لك أيوب النبي الصالح الذي آتاه الله مالاً كثيراً وأولاداً هم متاع الحياة الدنيا وزينتها فأراد إبليس أن يصده عن سواء الصراط، فما زال به حتى أحفظ عليه قلب الرب فانتزع منه نعمة المال والبنين، وابتلاه بصوف الألم والعذاب ما لم يسمع الناس بمثله، وفي تلك الأثناء يأتيه إبليس ليغويه فهناك تسمع أيوب وحده في وسط القمامات العفنة يناجي ربه بآهات هي ذوب الفؤاد وعصارة القلب، ويهم أن يميل مع الهوى فيظهر له رفقاؤه ويتناقشون معه في الحياة وآلامها ومغزاها والخير والشر، والسعادة واليأس، والعدل والظلم والثواب والعقاب، واللذة والألم وهكذا مما كان يتقرب به العقل اليهودي في القرون القريبة للمسيح في صلوات ودعواتهم بعد أن كانوا يتقربون إلى الله من طريق الشعور والاحساس وهكذا حتى انتهى إلى أن الإنسان مهما ارتقى فليس بمستطيع إدراك كمال الله وفكرة الخير والشر في هذه الحياة، وهذه النظرة هي من أمهات النظريات الفلسفية الحديثة وقد اعتنقها غير واحد من الفلاسفة ولا سيما (ليبانتس) الألماني في القرن السابع عشر.

وقد ترجم هذا المعنى (جوتيه) الألماني في روايته الشهيرة (فاوست) على نسق محاورة أيوب مع إبليس وأصحابه.

التلمود

للأمة اليهودية كما لغيرها من الأمم عادات وتقاليد يرعاها الشعب ويحفظ لها من القداسة والإجلال كما يحفظ للكتب المقدسة، ويشبهن الأمة الإنجليزية

في هذا حيث العادة والعرف تقوم لديهم مقام القوانين، ولم تكن تلك التقاليد مدونة مقروءة كباقي الكتب ، ولذلك أطلقوا عليها لف (الشريعة الشفوية) وتسمى (المشنا) وتتألف في مجموعها من ستة أقسام: (١) الفلاحة ونظمها (٢) الأعياد والمواسم ومواقيتها (٣) الأحوال الشخصية للجنس من زواج وطلاق نفقه (٤) العقوبات (٥) الذبائح والتقدمات (٦) الطهارة والنجاسة.

وقد كثرت الشروح والفتاوى والأحكام حول التقاليد (المشنة) حتى تكون من كل ذلك (الجمرة) وهي تشبه مذاهب الفقهاء المستبطة من الأحاديث النبوية عندنا.

وكان بجانب ذلك كله حكايات وقصص يتنقلها الناس تندراً وتظرفاً مثل الأقاصيص الدينية وغيرها.

هذا ولما تعقدت الحياة الاجتماعية وكثر الاختلاف في نصوص الكتب ، قام العلماء من القرن الثاني إلى السادس للميلاد وهذبوا كل هذه الأشياء ووضعوها في كتاب مستقل يبلغ حجمه حوالي العشرين مجلداً وأطلقوا عليه لفظ (التلمود) أي التلمدة والتعليم، وقد ترجم إلى معظم لغات أوروبا حتى قال بعض علمائهم (لابد أن يأتي يوم يرى الناس فيه أن التلمود من أهم تأليف العالم ولا يمكن تقدير ما فيه من الكنوز ..)

الفصل الخامس

اللغة العبرية واللغة العربية

تشبه اللغة العبرية أختها العربية في أمور كثيرة من مفرداتها وتراكيبها ودلالة ألفاظها ، وذلك أن اليهود لما تشتتوا في الأرض رحلوا إلى جهت عدة منها فرحل كثير منهم إلى شمالي الجزيرة العربية وبلاد العراق واليمن، وحينما نزلوا لا تجدهم إلا أيادي عاملة لا يعرفون الكسل، ولا يرضون بالقليل من الدنيا فكانوا هم الزراع في الجزيرة والعراق، وكانا هم الصناع في يثرب وغيرها، وكانوا هم الدائنين على التبشير في بلاد الجزيرة اليهودية حتى تهود كثير من القبائل العربية وبخاصة في بلاد اليمن حيث انتشرت دياناتهم وفلسفتهم وأساطيرهم في هذه الجزيرة الساذجة فصارفت منها قلباً خالياً فتمكنت فيه فنشأ عن هذا الامتزاج آثار في الآداب والديانة واللغة.

(أ) الأثر اللغوي

عرفنا الأمة اليهودية قد انبثت في أعطاف الجزيرة، وخالطت أهلها بالجوار والمصاهرة وتبادل المنافع، وطبيعي ألا يتم ذلك ولا يتهيأ إلا إذا كانت هناك وسائل للتفاهم ولا وسيلة غير هذه اللغة التي اختص الله بها بني الإنسان تيسيراً أو ارشاداً، فامتزجت اللغتان وتسربت المفردات في ثنايا كل منهما وزاد ذلك الامتزاج ما في طبيعة كل منهما من القرب والوضوح فصارت اللغتان أشبه ما تكونان بلهجتين مختلفتين للغة واحدة،

زد على ذلك أن بعض القبائل العربية قد اعتنقت اليهودية وكان لزاماً عليها أن تتخذ العبادة بهذه اللهجة المقدسة باللغة العبرية إذ لم يكن مستطاعاً لديهم أن يعربوا المعاني الدينية أو يحرفوا الكلم عن مواضعه خشية أن يمرقوا من الدين ويلحدوا فيه فزرت اللغة العربية بألفاظ اصطلاحية مثل الجنة وجهنم وإبليس والطاغوت وتوراة وزبور ... حتى القرآن نفسه قد أخذ هذه الكلمات والتراكيب بأعيانها من اللغة العبرية لشيوعها عند العرب وسهولة معناها لديهم وبذلك أصبحت أخف مؤونة من الألفاظ الجديدة التي ما كانت تحملتها طبيعة اللغة ولا يسيغها العقل العربي الساذج وقتئذ.

وإذا ما أردت أن تعرف مدى هذا التأثير فخذ أي كتاب بالعبرية واقرأه بإمعان على رجل بصير باللغتين وأنت ترى مدى القرب في مادة اللغة وفي هيئة نطقها وفي ذوق تصاريفها واشتقاقاتها ... تلك حقيقة قد فرغ الناس من بحثها فلا حاجة للإطالة فيها.

(ب) الأثر الديني:

لسنا الآن بصدد الشرح والتفصيل بين الديانتين اليهودية والإسلامية، ولكن حسبنا أن نبين الصلات لموجودة فعلاً بين التوراة والقرآن ومدى تأثيرها في عقلية الأمة العربية.

إذا نظرنا إلى الديانة الإسلامية وجدناها تشتمل على شيئين أساسيين هما العقيدة والتشريع ويتبع ذلك آداب وقصص لها أهميتها في صلاح المجموعة البشرية وكمال سعادتها.

أما العقيدة وهي المحور الأساسي الذي تدور حوله علوم القرآن وآدابه وتشريعاته فهي عقيدة التوحيد الخالصة من شائبه الشرك على أكمل وجه وأنصع بيان، ونرى القرآن يحدثنا: أن ما يقال للرسول صل الله عليه وسلم هو ما قيل للرسل من قبله من اتباع الدين القويم وإخلاص العبادة لله وحده، وهذا موجود في أول ديانة يشرحها لنا القرآن وهي ديانة اليهود، لهذا وجب على من أراد أن يطمئن قلبه بالإيمان والتوحيد عند اليهود وما طرأ عليها من التقلبات والأحوال ليكون على بصيرة من دينه ويبرأ إلى الله بإرضاء ضميره بالبحث والاستقراء.

أترانا بعد أن حررنا القرآن من قيود التقليد والاستعباد الفكري وأطلق لنا عنان لبحث الحر والنظر المستقيم –نؤمن بهذه الكتب قضية مسلمة من غير أن نبحث في روحها وما توارد عليها من النشوء والارتقاء؟ أظن أن هذه الأمور من أبسط ما يجب على الرجل المستنير الذي يحترم نفسه.

وأما التشريع فقد ذكر لنا أموراً من تشريع اليهود واعاده علينا بنصه ومعناه وحاجهم في كثير من المحرمات والمحللات وأقام عليهم الحجة وكان جدال في صدر الإسلام، كل ذلك قد حفظه لنا القرآن بلفظه ومناسباته أترانا بعد كل هذا نقف بعيداً عن المعركة ونقول كما قال اليهود "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون"؟ كلا وإنما نقول "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون بأبحاثنا ...".

ومن جهة أخرى ما بالنا نرى علماء التشريع في القرن العشرين وهم

جبابرة العقول يدرسون القانون الروماني القديم وهو على ما فيه من تشويه ونقص واضطراب وقلة خبرة لا يصلح أن يكون منهجً قويماً في حياتها الحاضرة مع أن عالماً واحداً يستطيع أن يأتي بأفضل منه معنى ومبنى وأدوم على الدهر؟ ولكنهم يجيبونك أن البناء إن لم يكن على أساس متين فأوشك به أن ينهار فهم بدراسة القوانين القديمة يستطيعون أن يعرفوا حاجة الأمم وما تتطلبه من الفكر والتشريع، وما مبلغ العدالة وقداسة الحق لديهم وما هو المحور الأساسي الذي يدور حوله التشريع كل هذه أسئلة ترد علينا في التشريع الإسلامي وجوابها في دراسة التوراة وشروحها إذ أنهما تفرعا من دوحة واحدة وسقيا بماء واحد لا لنستعين بذلك على حجية القرآن ولكن لنعلم أن القرآن لم يفاجئنا بما تعي العقول به.

وفي القرآن قصص ومواعظ وتاريخ أتى بها على أخصر أسلوب وأجمع معنى حماية لفكرة أو إشارة إلى موعظة أو زجراً عن قبيح أو استمالة لقلوب قد استغواها الشيطان أو استهواء لأفئدة قد طوح بها الهوى والغرور أو وعداً أو وعيداً ... والقرآن ملي بأمثال هذا وهو يحثنا أن ننظر في آثار من سبقنا من الأمم ونتدبر تلك القصص وهي موجودة في التوراة وشروحها تامة الحوادث متسقة التركيب مبينة للزمن والوقائع التي حدثت فيها، أفلا يكون هذا من أعظم الأشياء التي حثنا القرآن على النظر إليها والموعظة منها؟

(ج) الأثر الأدبي:

الحكمة: هي جملة من القول مبنية على صدق الفراسة وقوة الخبرة ودقة البحث وصدق الدلالة ... وبديهي إلا يتهيأ ذلك لأمة إلا إذا ما تشعبت حياتها وتعقدت مسالكها وهذبتها الحضارة ورفعها المدنية إلى مستوى استنارت سبلها فيه بما ترفق من طباع جافية وتلين من قلوب جاسية وتقر من أحلام طافية فتخلص بصائرهم وتنمو ضمائرهم، ولدينا تاب العرب قبل الإسلام وقبل أن يسترشدوا بنوره فإذا حياة ساذجة هادئة وإذا نظرات سطحية لا دقة فيها ولا بحث وإذا حضارة ومدنية لا قرار لهما ولا ثبات فأتى لهم هذا المدد الفياض من الجمل الحكمية المأثورة عن حكائهم؟ إذا بحثت عن تاريخ الجمل الحكمية في جاهلية العرب وجدت أن منيعها وموئلها شخص يدعونه "لقمان" حتى إنه ما من حكمة لا يعرف قائلها إلا وتنسب إليه فزخرت كتب الآداب والتاريخ بحكمه وآدابه وما نسب إلى غيره قليل لا يبلغ معشار ما أتى به هذا الرجل حتى لقد ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة خاصة من التنزيل تسمى سورة "لقمان".

ثم لعلك بعد ذلك تسأل من لقمان واضع الحكمة العربية؟ أهو عربي أم ماذا كن أصله؟ أما المتعصبون من العرب فينسبونه إليهم ويعزونه إلى قبيلة بعينها، وأما لمنصفون من أهل التاريخ فيذكروا أنه رجل إسرائيلي أتى الحمة وفصل الخطاب وعنه أخذ العرب بوساطة اليهود الذين انتشروا في الجزيرة العربية بآدابهم وعلومهم ودياناتهم لموافقة الحكمة لطبيعة العربي؛ لقلة وورنق عباراتها ولديك العهد القديم فارجع إليه لتعرف صدق هذا.

المثل:

هو جملة من القول تنتزع من حادثة واقعية أو خرافية لتقال فيما يشبهها من الحوادث فتكتسبه جمالاً في القول وخفة في الأسلوب ورواء وحدة في الذهن وانتباها، والعرب وإن أكثروا من الأمثال لموافقتها لهواهم وذوقهم إلا أن نلمح في أمثالهم تشابهاً كبيراً لأمثال العبرانيين حتى إن كثيراً من ذلك ينسب إلى أشخاص إسرائيليين كأمثال سليمان وأمثال لقمان التي جمعت في سفر خاص.

الشعر:

لا نستطيع أن نبحث هذا الجزء من جهة أوزانه وأساليبه وإنما الذي يعنينا هو أننا قد عرفنا أثار الصحراء وطبيعة الحياة الاجتماعية هناك ومقدار تأثرهم بذلك فما بالنا نرى لوناً جديداً في شعر عدي ابن زيد العبادي وأمية بن أبي الصلت والسموءل بن عاديا وغيرهم من شعراء المعاني الدينية، أمن حياتهم ذلك أم من وثنياتهم؟ لا نستطيع أن نعطي حكماً خاصاً إلا أن يكون قد غذى هذا العقل بعقيدة جديدة مسيطرة على العالم ولا ترى أثراً للديانات في جزيرة العرب قبل ديانة اليهود

فإذا ما أردت أن تدرس شاعراً من هؤلاء أتستطيع أن تفهمه تماماً دون أن تعرف هذه النظريات التي كان يتحدث عنها من منبعها الأصلي الذي استفاضت منه؟

الباب السادس

الآرامية – السريانية

الفصل الأول

الآراميون

في حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد رحلت قبائل متوحشة بدوية غلاظ الأكباد عماليق الأجسام لا يعرفون نظاماً ولا مدنية ولا يرجون تآلفاً ولا اتحاداً ، ضاقت بهم سبل الحياة في جزيرة العرب وغضتهم الصحراء بأنيابها ، ففروا هاربين لا يلوون على شيء ولا يأتون إقليماً إلا أوسعوه تخريباً وتدميراً فما زالوا يهلكون الحرث والنسل كالعواصف المزعجة حتى أتوا ريف العراق وخصب الشام فوجدوا هناك مرتاً خصيباً ونضارة ما كانوا ليحلموا بها في صحرائهم ، فانقسموا فريقين كبيرين يتداولون هذه الغنائم الباردة والطعمة السائغة فرحلت الفرقة الأولى إلى شمالي السواحل السورية وشرقيها وانتقصوا الكنعانيين من أطرافهم وحلوا بلادهم ضيفاً ثقيلاً وحملاً جسيماً فقاومتهم الدولة الكنعانية ولكن هيهات أن تظفر منهم بطائل وقد كانوا قوماً همجاً لا نظام لهم ولا وحدة عامة فما زالت الأيام بين هؤلاء الأعراب المتوحشين وبين الكنعانيين والعبرانيين تتداول حتى قر أمرهم بالقوة والغلبة وأسسوا دويلات صغيرة كانت شراً مستطيراً على أهل البلاد وأهم هذه الدويلات في آرام دمشق وآرام صوبا في أرض حران وآرم بيت رحوب على ضفاف اليرموك وآرام متخا في جبل الحرمون.

وأما الفريق الذي ذهب إلى جنوب العراق ، فقد ثبتت أقدامهم هناك لأن ملوك آشور كانوا في شر مستطير مع الحيثيين الذين هم غيلان آسيا

الوسطى فتدخلوا في شئون البلاد وامتزجوا بهم وتأثروا بحياتهم ونظمهم وعقلياتهم هذه الطوائف جميعها كانت تسمى الآرامية.

لهذا نرى أن اللغة الآرامية كانت في جزيرة العرب "مهدها الأصلي" ثم نزحت كما نزح أخواتها إلى الشام وتفرعت فرعين كبيرين، فرعاً ذهب إلى الغرب في بلاد الشام، والآخر ذهب إلى الشرق في بلاد العراق.

فالذي ذهب إلى الشام تفرعت عنه اللغات الآتية:

(١) لغة اليهود المتأخرين

(٢) لغة أهل تدمر

(٣) لغة النبط

(٤) لغة السامريين

والذي ذهب إلى العراق تفرعت عنه اللغتان الآتيتان:

(١) لغة اليهود في بابل.

(٢) اللغة السرانية.

الفصل الثاني

لغات العرب المتفرعة من الآرامية

(أ) لغة اليهود المتأخرين:

تداخلت هذه اللغة الآرامية في اللغات الغربية من بلاد الشام ، وخاصة العبرية إلى حد كبير حتى إنك لتجد في بعض العصور القريبة من الميلاد أن اليهود كانوا ينطقونها في معاملاتهم وتآليفهم ورسائلهم وتجد لذلك آثاراً في الكتاب المقدس مثل سفر "أرميا" وغيره كما أنهم ترجموا الكتاب المقدس إلى هذه اللغة ، ليستطيع الجمهور أن يقف على جوهر التعاليم الدينية باللغة التي يفهمها، وقد وضع كذلك جزء كبير من التلمود بها.

(ب) لغة تدمر:

وفي الجزء الشرقي الجنوبي من بلاد دمشق في البرية بين حمص والفرات، كانت هناك دولة قوية مهيبة الجانب ذات حضارة ومدنية عظيمة يرجع تاريخها وأصلها إلى أعراب آرام تلك الدولة هي الدولة (التدمرية ذات الشهرة الفائقة في القرون القريبة من الميلاد ، حيث أصبحت مضرب الأمثال في الجمال والقوة، ومنبع الخيال في الأقاصيص والخرافات التي نسجت حول هذه الدولة الفتية الزاهرة، فمن ذلك أن الجن هي التي بنتها على عمد من الرخام بأمر سليمان بن داوود؛ لأن العقل العربي إذا ما بهره شيء وأخذ عليه حواسه نسبه إلى الجن، قال النابغة الذبياني:

ولا أرى فـاعلاً في النـاس يشـبهه		ولا أحاشـي مـن الأقـوم مـن أحـد
إلاّ سـليمانَ ، إذ قـالَ الإلـهُ لـهُ		قـم في البريـة، فأحـددها عـنِ الفنـدِ
وخـيّسِ الجِـنّ! إنيّ قـد أَذِنْـتُ لهـمْ		يَبْنُـونَ تَـدْمُرَ بالصُّـفّاحِ والعَمَـدِ

حيث كانت مركزاً هاماً للتجارة الدولية البرية لوقوعها بين أكبر دولتين عرفهما التاريخ هما فارس شرقاً، والروم غرباً وكان اليونان والرومان يخافون أمرها ويرهبون جانبها ويرسلون إليها الهدايا والنفائس وآخر ملوك هذه الدولة هي (الزباء) أو زانبيا صاحبة الحديث الذي ينسب إليها مع جزيمة الأبرش وقصير وغيرهما مما أفعمت به كتب الأدب والتاريخ وشهرة هذه الدولة ترجع إلى الآثار القديمة والنقوش الكثيرة التي خلها التدمريون على معابدهم وهياكلهم فمن ذلك أنهم كانوا ينقشون صورة الميت على القبر، وقد رأى أوس بن ثعلبة صورة فتاتين على قر فقال:

فتـأتي أهـل تـدمر خـبراني		ألمـا تسـأما طـول المقـام
فيـا مكمـا علـى غـير الحشـايا		علـى جبـل أصـم مـن الرخـام

وقال مُحَّد بن الحاجب:

أتـدمر صـورتك همـا لقلـبى		غـرام لـين يشـبه غـرام

ويؤخذ من دراسة هذه الآثار أنها كانت بيزنطية يونانية الصبغة، وأن لغتها فيها مفردات كثيرة من اللغة اليونانية والرومانية، والجزء الأكبر فيها من اللهجة الآرامية.

وهي في مجموعها لا تخرج عن دولة كانت لها صلة خاصة باليونان

والرومان أيام عزها ومجدها، ومازالت حافظة مكانته بين الأمم المستقة الراقية حتى قضى على ملكها في القرن الثالث الميلادي واندمج الأهالي في العرب النازحين من سد مآرب في الجهات الشمالية والشرقية من الجزيرة العربية.

(ج) لغة النبط:

هناك أمة لا تقل عن الأمة التدمرية في سلطانها ونفوذها واتصالها بالعرب الجاهلين خاصة الأمة (النبطية) ويؤخذ من أقوال المؤرخين العرب والإفرنج، وما وجد من الآثار في بلاد الحجاز وجنوب فلسطين وطور سينا أن لغتهم كانت قريبة الشبه جداً بالآرامية إلا أنها قد دخلتها مفردات وأسماء عربية صدفة كأسماء الأعلام والقبائل والأشياء الحسية، وكانوا يكتبون اللغة بالخط الآرامي المستعمل لديهم للمكاتبات، وإن كانت لغتهم هي العربية القديمة؛ لأن الكتابة العربية لم تكن وجدت بعد في الأمة العربية، كما يفعل أهل النوبة الآن: يتحدثون بالنوبية ويكتبون بالعربية.

وكانت أهم مواطنهم صحراء سينا في جنوب فلسطين وعاصمتها (سلع) وهي لا تزال أطلالاً ماثلة إلى الآن، وما زال النبط يختلفون إلى العرب حتى جاء الإسلام وهم يرتضخون لكن كان يأنفها العرب الخاص ويهجنون من ينطق بها، وكتب الآداب العربية مليئة بذلك.

هذا وقد دخلت مملكتهم في حوزة الرومان سنة ١٠٥ م كما دخلت أختها تدمر بعد ذلك.

(د) لغة السامرين:

هم قوة من الأعراب أسكنهم الأشوريون مدينة (سامرة) بعد أن خربوها واجلوا اليهود عنها، وهي قريبة من نابلس، وقد اعتنقوا اليهودية، واستقلوا عن الأحبار في القدس، ورفضوا كل التعاليم اليهودية ما عدا التوراة فقط، وترجموها إلى لغتهم التي لا تزال عربية تشوبها ألفاظ آرامية.

الفصل الثالث

لغات العراق (الآرامية)

أما الفرق التي ذهبت إلى العراق ، فاقتسمت فريقين كبيرين كانا على أهمية كبيرة من حيث الآداب والاعتقادات فانقسم الجنوبي ذهب إلى رض بابل واختلط باليهود هناك وكون له فلسفة ولغة تقرب من اللغة العبرية الغربية وأسسوا هناك مدرسة فلسفية علمية دينية وأهم ما دون بتلك اللغة العبرية في هذه المدرسة كتاب التلمود وهو شرح كبير يحوي كل خرافات الإسرائيليين وأساطيرهم ومعارفهم، وكان تأثيره عجيباً في عقلية اليهود المتأخرين ولا سيما من بقى منهم على اليهودية ولم يدخل في الديانة لمسيحية التي كانت منتشرة وقتئذ في تلك البلاد وقد دخل شيء كثير من تعاليمه وخرافاته في الديانة الإسلامية في العصر الأول بعد أن أسلم اليهود ، وخاصة الأحبار منهم مثل كعب الأحبار وعبدالله بن سبأ وغيرهما ، فكان هؤلاء الأحبار المسلمون يدخلون هذه التعاليم ولا سيما ما يتعلق منها بمبدأ الخليقة، والدار الآخرة فينقلها عنهم الرواة والمحدثون من غير بحث ولا تدقيق سذاجة من الناقلين وإكباراً للقائلين أن يدخلوا في الدين ما ليس منه، وهكذا تسربت هذه الأساطير إلى الإسلام ما نجده مستفيضاً في تفسير الخازن وغيره.

وأما الفرقة الثانية ، فقد رحلت إلى شمالي الجزيرة وحطت رحالها في مقاطعة الرهاءوأدوسا وحران واعتنقت الديانة المسيحية وأطلقت على

نفسها لفظ (السريان) أي الآراميين المسيحيين تمييزاً لهم عن الآراميين الوثنين الذين كانوا يأنفون من الانتساب إليهم فعكف هؤلاء السريان على دراسة كتب اليونان وآدابهم وفلسفتهم التي كانت مستفيضة في الشرق إذ ذاك، وساعدهم على ذلك وجود علماء اليونان الذين كانوا يفرون خوفاً من ظلم الرومان واضطهادهم فتبحر هؤلاء السريان في العلوم اليونانية ونقلوا كل ذلك إلى لغتهم لاتصالهم المباشر باليونان كما نقلوا كل الكتب المقدسة إلى السريانية فأصبحت السريانية في ذلك الوقت أغنى لغة سامية من حيث الحضارة والمدنية والعلوم والدين والفلسفة، فكانت بذلك مهداً خصيباً لظهور المسيحية وتقبل دعوتها وظهورها بمظهرها الروحي اللذيذ.

ويقسم التاريخ العلمي للسريان قسمين: أحدهما إلى ظهور الإسلام بالعراق، والآخر إلى فنائهم بنكبة التتار، ما الجزء الأول من حياتهم فقد نقلت إليهم الفلسفة اليونانية، والديانة الإسرائيلية والتعاليم المسيحية، فأرادوا أن يوفقوا بين هذه المعلومات والتعاليم الدينية فكانت مدينة الإسكندرية على ما يذكر المؤرخون (هي واسطة الاتصال بين ديانات الشرق والهامة وأساطيره وبين بحث الغرب وعلومهم، وآدابهم فانتج هذا الاتصال نوعاً من التفكير هو نتيجة هذا التفاعل الذي سارت على ضوئه النظريات العلمية إلى قبيل النهضة).

الفصل الرابع

آثار السريان اللغوية والدينية

اعتمد السريان في أبحاثهم ومعارفهم على جهتين رئيسين من علوم اليونان هما المنطق والأخلاق، وكانت قبلتهم في المنطق كتب آرسطو التي عكفوا على دراستها وتلخيصها دراسة مستوفاة عميقة كان من نتائجه ظهور هذه المذاهب الدينية المختلفة، وتلك القواعد النحوية والصرفية التي اخترعوها وكانت وجهتهم في الأخلاق إلى (الفيثاغورثية) الجديدة، والأفلاطونية الحديثة التي كانت منتشرة في أيامهم ولا سيما في مدينة الإسكندرية، وكان من آثارها ظهور هذا اللون الرائع من الفلسفة والتصوف والرهبنة التي اصطبغت بها المسيحية في عصورها الأولى والتي سرى منها الشيء الكثير إلى علماء الإسلام في القرنين الأولين.

والذي يهمنا هو أن نذكر آثارهم في اللغة وقواعدها لأن علماء اللغة العربية قد حذوا حذوهم في كل ما عملوه وترسموا خطاهم في منهجهم الذي ابتكروه.

آثارهم في اللغة السريانية

(أ) الحركات:

قدمنا ن الخط الفينيقي هو الذي ساد في جميع ممالك الأرض على اختلاف أجناسها، وأخذته كل أمة فعدلت في أوضاعه بما يتفق ولهجتها

وحرفها، وكانت خالية من علامات الحركات.

فاليونان لما أخذوا الخط الفينيقي وجدوا به أحرفاً ليست لها أصوات في لغتهم، وهي الأحرف الحلقية التي من خصائص اللغات السامية، كما أنهم وجدوها خالية من علامات الحركات، فاستطاعوا بقوة أبحاثهم أن يحولوا أحرق الحلق التي لا داعي إليها إلى حروف صوتية تدل على الحركات التي ليس لهم غناء عنها، فمثلاً حولوا الحاء وجعلوها E لقرب المخرج في النطق وحولوا العين وجعلوها O وهكذا.

أما السريان فكانوا يكتبون الخط الفينيقي من غير علامات الحركات أولاً كما نجده واضحاً في الخط (الاسترانجيلي) ولكنهم لما ترجموا الكتب المقدسة إلى لغتهم بعد أن اعتنقوا الديانة المسيحية خافوا أن يخطئوا في تلاوة الأناجيل فيؤدي ذلك إلى تحريف الكلم عن مواضعه فاخترعوا النقط للدلالة على الحركات فمثلاً، النقطة فوق الحرف تدل على الفتحة، وتحته تدل على الكسرة ووسطة تدل على الضمة، والعالم بتاريخ (الشكل والأعجام) في اللغة العربية يراها سارت في هذا السبيل ونقلت كل مصطلحات السريان في لغتهم ولدينا من آثار هذا العهد مصاحف مشكولة بالنقط إلى أن جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي فأدخل الحركات المعروفة الآن.

(ب) قواعد اللغة:

كذلك السريان كانوا واسطة في نقل قواعد اللغة من نحو وصرف إلى اللغة العربية من علوم اليونان في المنطق، وذلك أن (آرسطو) قسم الكلمة

إلى اسم، وفعل، وحرف، وقال: إن كل شيء مخلوق لابد أن يكون في زمان ومكان معينين يكونان بمثابة ظرف له ولذلك سمي لذلك المفعول فيه ظرفاً، كذلك لديهم أن لصرف هو تحويل حرف في آخر الكلمة إلى حرف آخر، فأخذ السريان كل ذلك وهذبوه ثم نثل إلى اللغة العربية.

المذاهب الدينية

علمنا مما سبق أن العلوم اليونانية نقلت إلى الشرق على يد السريان ثم ترجمت جميعها إلى اللغة السريانية، وأن الطوائف المسيحية الكبرى انت في ثلاثة مراكز: النساطرة في الشرق (العراق) واليعاقبة في الغرب (الشام وبخران والحبشة)، والملكانية وهي الكنيسة العامة.

وأهم المناقشات التي فرقت دينهم وجعلتهم شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون –هي (طبيعة الإله والمسيح) فاليعاقبة قررت أنهم مظهران لنور واحد، وصنوان لدوحة واحدة، وقد اجتمعا في شخص المسيح عليه السلام، والنساطرة أبت أن تعترف بهذا وصرحت أنهما مختلفتان يستحيل الجمع بينهما، والكنيسة العامة أرادت أن توفق بين الرأيين فقررت أنهما مختلفتان ولكنه يمكن أن تجتمعا في شيء واحد.

ونشأ عن هذا الاختلاف شيء آخر هو: هل الفعل والإرادة الألهيان متفقان مع الفعل والإرادة الإنسانيين أو مختلفان؟ فاليعاقبة وحدوا بينهما،والنساطرة فرقوا والكنيسة العامة وفقت.

هذ والناظر في تاريخ الفرق الإسلامية يدرك إلى أي حد تأثر المسلمون بهذه المذاهب المختلفة في عقائدهم التي تكاد تكون صورة واضحة في الفرق الإسلامية الكبرى فالمعتزلة يشبهون النساطرة في نزعاتهم الفكرية الحرة،

والأشعريون (السنية) يشبهون اليعاقبة في المحافظة على نصوص الكتب المقدسة وآثار السلف الصالح، والماتريديون يشبهون أصحاب الكنيسة العامة في التوفيق بين الطرفين وانتهاج السبيل الوسط وإذا كان العراق هو القطر الشقيق لجزيرة العرب تربطهم وإياها أواصر الجوار والمصالح الاجتماعية– أدركنا السبب في أن مذهب النساطرة هو الذي ان سائداً بين المسلمين عامة والمعتزلة خاصة في القرنين الأولين للهجرة.

وكانت هذه الفرق تتجادل وتؤيد مذاهبها بالكتب المؤلفة في مناحي العلوم والبراهين بهذه اللغة السريانية فزخرت اللغة بهذا الكنز الذي يعد أعظم كنز عرفته أمه سامية إلى الآن هذه المناقشات لم تكن تصدر إلا من أساطين النساطرة وفطاحل اليعاقبة ورهبانها وأهم ما أثر عن هذه المعارك الفكرية هو كتب الدين، واللغة، والأدب، والتاريخ، وتراجم القسيسين والرهبان ... مما نقل أكثره إلى العربية في القرن الثاني، وعلى دراسته تخرج أقطاب العرب في الفلسفة والعلم والدين ولما أدال الله للمسلمين من بلاد العراق والشام دخل كثير من هؤلاء النصارى في الإسلام وتكونت منهم طبقة التابعين التي كان لها ولمن أتى بعدها أكبر الأثر في مدنية الإسلام.

الباب السابع

اللغة الحبشية

لعل من أمتع الأبحاث التي يستلذها الانسان في بحثه عن اللغات السامية.. هذا الحديث الشهي عن اللغة الحبشية وتاريخها وأطوارها ، وظني أن السبب في ذلك يرجع إلى هذا العهد القصير الذي تمت فيه معلوماتنا عن هذه الدولة العظيمة. فأن للأثار المشاهدة لدى النفس وقرب تاريخها ما يجعلها حلوة المذاق خفيفة المئونة. زد على ذلك أن هذه اللغة الحبشية التي سنتحدث عنها هي الضالة المنشودة في حلقات اللغات السامية عامة والعربية خاصة أو بعبارة أصح هي نقطة الاتصال بين ماضينا المجيد وحاضرنا الباهر القوي من حيث اللغة والآداب.

ولكنها على ما فيها من قرب الصلة ومتانة التركيب والمحافظة على الأوضاع السامية– ترينا كيف يتأثر الإنسان بالمخالطة والجوار والعقيدة والأدب حتى يصبح جنسا غير جنسه الأصلي وتركيبا عجيبا لا يتلاءم مع مزاجه وقوته الأولى الغريزية.

للتاريخ الحبشي صبغة خاصة تميزه عن سائر التواريخ القديمة وإن كانت ذات حضارة ومدنية قديمة فلما تتاح لأخواتها الساميات ساكنات الصحاري والقفاز.. تلك الصبغة هي انقطاع أخباره قبل الميلاد. فأن أحدا من المؤرخين لا يزعم أنه يعرف من أمر تلبكم البلاد شيئا على التحقيق إلا أن أمة (الآغو) الحامية كانت منشرة فيها على غير نظام.

ولكنا إذا أخذنا بالفرض والمقايسة وجارينا علماء الطبيعة والجغرافيا في هذا المبحث فأنا نقول: إن هذه البلاد الحبشية كانت متصلة يوما ما بالبلاد اليمنية وكانت خاضعة لملوك اليمن وأقياله.

ولما طفي البحر وانفصلت هذه البلاد أصبح لأهلها صبغة خاصة ومميزات تبعدهم كثيرا عن أصلهم السامي القوي، وفي الوقت نفسه تحفظ لهم خصائص لغتهم العامة وقواعدهم الثابتة.

وما حدا العلماء إلى تقرير هذه الحقيقة إلا أنهم وجدوا اللغات السائدة في بلاد الحبشة واللهجات المفرعة عنها إنما ترجع إلى خصائص اللغات السامية في استقامتها وتصرفاتها وتراكيبها وكثير من مفرداتها وخطوطها.

وعرف الساميون الذين قطنوا تلكم الجهات وتولوا أمرها والسيادة فيها (بالجزعيين) أي الأقوام الأحرار الأماجد، و يا لها من تسمية ولقب يحمل بن عطفيه مخايل الشرف ونبالة المحمد! فكانت لغتهم تسمى (الجعزية) وكانت تستعمل في الدواوين الرسمية والرسائل والتأليف والطقوس الدينية وكل مظاهر الحياة الأدبية.

وظلت هذه البلاد الخصبة الرائعة بعيدة عن الناس حتى هبط إليها قوم من اليهود حوالي القرن الأول قبل الميلادي، ويختلف المؤرخون اختلافا شاقا في السبب الذي حمل اليهود إلى تلك البلاد والسبيل التي سلكوها في ذلك.

والمعقول أنهم فروا من وجه الرومان بعد نكبه فلسطين، وتخريب

معابدهم وتشتيهم في طول البلاد وعرضها ونزلوا هذه البلاد عن طريق اليمن وأخذوا يبشرون باليهودية بين طبقات الشعب حتى تهود كثير منهم ولا تزال لهم بقية باقية إلى الآن وتعرف باسم (الفلاشة).

وأعظم أثر لليهود في تاريخ هذه البلاد الحية هو أنهم ترجموا التوراة إلى اللغة الجعزية وكتبوها بحروفها "السبأية" المعروفة ، وأدخلوا بطبيعة الحال ألفاظا كثيرة من العبرية الآرامية واليونانية فأثرت هذه الترجمات في ثقافة الشعب وخلقت نوعا جديدا من التفكير والبحث والمعرفة لم تكن قبل فأحدث ذلك للغة الجعزية ثروة دينية راقية وعلوما وضعية مهذبة وبذلك مهدت السبيل العقلية لدى الحبشان أن يقتبلوا المسيحية التي جاءت إلى تلك البلاد حوالي القرن الرابع الميلادي فرسخت أقدامها وبسقت فروعها وآتت أكلها كل حين في هذه البلاد ولعبت دوراها ما في المناظر أت والمجادلات الدينية والسياسية أن كانت مرتع أساطين اليعاقبة.

ويرجع السبب الحقيقي لدخول المسيحية هذه البلاد إلى السياسة والاستعمار أكثر مما يرجع إلى الدين والتبشيرية وهكذا النصرانية وأممها لا تستطيع أن تفرق بين الاستعمار والدين فالسيف في اليد اليمني، والإنجيل في اليسرى وكثيرا ما يمهد الإنجيل وتفاسير العقول لقبول الذل والخضوع والرضا بالدون فيقع الشعب فريسة الاستعمار المشين وهو ما نراه من أمم الغرب اليوم ولاسيما الممالك اللاتينيين منها.

وذلك أن قسطنطين الروم قد أرسل بعثات متتالية لا تفتر في سبيل التبشير بالدين الجديد في ظاهر الأمر ، ولكنها تخفي الحقيقة الاستعمارية تحت ثوب من الرياء قلما يثبت أمام الحق الواقع. وتدرعوا في سبيل ذلك

بالمجاملات السياسية والتزلف بأنواع الهدايا النفيسة حتى كللت مساعيهم بالنجاح التام ووقعت اليمن وضواحيها في قبضتهم وهم لا يشعرون.

ومن هذا الوقت بدأوا يتدخلون في بلاد الحبشة ويدعون الناس إلى الدين الجديد ، فوجدوا منهم آذانا صاغية وقلوبا لم تتقاسمها الأهواء بعد فتمكنت الديانة الجديدة ولمسكت على الناس كل مشاعرهم وأصبحت قانون الجماعة ودستور الحكومة وهذا هو السر الذي يفسر لنا اتصال الدين بالحكومة الحبشية اتصالا متينا حتى إنك لا تستطيع أن تميز الملك وأعماله من القسس والرهبان ووظائفهم وبذلك الفتح الروحاني اكتسب المسيحيون الرومان شبه امتياز أدبي أنشأوا بسببه يغيرون من أوضاع البلاد ويتدخلون في شئونها السياسية الخارجية حتى فطن أهل اليمن إلى نواياهم الخبيئة فأنزلوا بمستعمراتهم الوادعة المطمئنة التي لم تبد شغبًا ولم تظهر خلافا– أنزلوا بهم العذاب.

والتقتيل على عهد ذي نواس ملك اليمن وهكذا .. سنة الله في خلقه "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة" وهذه هي قصة (أصحاب الأخدود ... التي ورد ذكرها في القرآن).

وعندما رسخت أقدام المسيحية في بلاد الحبشة أخذوا يترجمون الأناجيل إلى لغة البلاد وهي (الجعزية) واستطاعوا أن يدخلوا كثيرا من المصطلحات الدينية والعلمية وألفاظا كثيرة من السريانية واليونانية.

فتصور بعد كل هذا حالة اللغة وقد ترجمت إليها التوراة بما فيها من حكم وأمثال وتشريعات وتاريخ وفلسفة روحية وكذلك الأناجيل وشروحها

ماذا يكون حالها.

ولم تزل هذه اللغة قائمة بمهام الدولة والحياة الاجتماعية بكل مظاهرها تستمد قوتها وبقاءها من الأسرة الحاكمة السامية التي كانت تتعصب لها أشد التعصب إلى أن عزلت هذه الأسرة وأسست أسرة جديدة من القبائل (إلا محارية) التي هي قنطرة بين الساميين والحاميين حوالي القرن الثالث عشر. وبذلك أخذت اللغة الجعزية تتضاءل شيئا فشيئا إلى أن اختفت من عالم التأليف والتدوين والمحادثة على أطوار سنفصلها بعد مقارنتها باللغة العربية القديمة وتدرج الخطوط التي كانت مستعملة بهذه اللغة المقدسة.

اللغة وأطوارها:

تدل الآثار الصحيحة أن اللغة الجعزية كانت متصلة بلغة (سبأ) في اليمن في قرون طويلة حيث وجدت نقوش تدل على اسم ملك كان يملك اليمن وحضرموت والحبشة وغيرها، وأن هذه القبائل السامية الموجودة ببلاد الحبشة قد اختلطت بالحاميين (آغو– الكوشيين) ودام الصراع بينهم حقبة من الزمن كانت الغلبة في نهايتها للساميين.

وظهرت اللغة الجعزية على باقي اللغات واللهجات الحامية واحتلت مركزًا في البلاد إلى القرن الثالث عشر الميلادي.

واللغة الجعزية في تركيبها واشتقاقاتها ونوع تصاريفها تشبه اللغة العربية ولاسيما اللغة اليمنية قديما، وتمتاز الحبشة أنها حافظت على أوضاع قديمة للغة السامية الأولى لم تحفظها لغة غيرها.

ومع هذا النسب بين اللغات السامية فاننا نلحظ فوارق بين اللغة الجعزية والعربية تتلخص فيما يأتي:-

(ا) أن أداة التعريف لم تظهر في الجعزية (مثل السبتية والحميرية) ولا شك أنها من الخصائص التي تدل على حضارة اللغة ورقيها، وبعض اللغات السامية تختلف في ذلك اختلافا كبيرا على حسب درجاتها من الرقي والحضارة اللغوية واللسانية، فبعضها يخلو من أداة التعريف كالجعزية هذه "والآرامية المتأخرة" وفي العبري هي جرف (ها) وفي آخر الكلمة من اللغة السريانية توضع حرف (ا) للدلالة على التعريف أحيانا.

واختلاف اللغات السامية في أداة التعريف يدلنا على أن اللغة الأصلية كانت خالية منها وهذه الزيادات لحرف التعريف إنما جاءت متأخرة لتحضر اللغة ورقيها.

(ب) وكذلك لا تمييز في الجعزية بين المذكر والمؤنث والمثني والجمع وتلك ميزة من خصائص اللغة بعد رقيها. ألا تري أن العبرية لا تسير على قاعدة في تعريف المذكر والمؤنث ولا بين المثني والجمع إلا في ألفاظ محدودة طبيعية في التثنية بذاتها كاليدين والرجلين؟ .

وأنظر إلى العربية وقد قطعت شوطا محمودا في المدنية والتهذيب اللغوي ألا تراها تحن إلى أصلها البدوي وتسير سيرا معكوسا مضطربا في تمر الأعداد ونحوها فتضع اللفظ المؤنث لمميز مذكر وبالعكس.

فهذا وشبهه يدل على خلو الجدة العليا للغات السامية من أداة التعريف والتمييز بين المذكر والمؤنث والجمع وغيره.

(ج) نجد في الجعزية ألفاظا من الحامية ، وذلك بطبيعة الحياة الاجتماعية في تلك البلاد إلا أنها لانحطاطها لا تعدو ألفاظا معدودة كبعض الألفاظ الكوشية القديمة الصرفة إلا أن القسط الأوفر من الألفاظ الدخيلة على الجعزية راجع إلى اليونانية والسريانية والعبرية لتأثر الحبشان بالديانين الإسرائيلية المسيحية والترجمات المختلفة لكتب الدين التي كانت تحوي شيئًا كثيرا من هذا لهذا تجد آثار الأحباش القدماء مدونة في بطون الكتب باللغة الجعزية التي كان لها السلطان على البلاد إلى حوالي القرن الثالث عشر.

الخطوط الجعزية

أما الخط والكتابة الجعزية فأنها أخذت شكلا خاصا تدرجت فيه من غرارة الطفولة والتقليد إلى مرتبه الاستقلال، وذلك في ثلاثة أطوار طبيعية، وفي كل دور آثار تدل عليه وتنبئنا بتدرجه وانتقاله:-

(ا) من خصائص الجعزية الأولي أنها لا ترسم الحركات بحروف، وبعبارة أوضح كانت تعتمد في خطوطها على الحروف التي تبني منها الكلمة فقط ولا تعني بكتابة حركات الأصوات المختلفة من فتحة و.... والفرق ظاهر بين الطريقتين وذلك أن الحروف ثابتة لا تتغيرعلى حين تجد الحركات تختلف من لون إلى آخر فمن مد إلى قصر إلى غير ذلك.

وهذا الدور في مجموعة هو الخط اليمني القديم الذي كان شائعا إذ ذاك.

(ب) أما وقد تحضرت اللغة وارتقت الأفكار وتهذب المنطق فمن

الطبيعي أن أهلها يضطرون إلى وضع حركات على الحروف التي يشتبه في نطقها أو تكون عرضه للتأويلات وهذا هو الحاصل في اللغات السامية الآن فأننا نشكل الحروف ونعجمها خشية الالتباس وقد وجهت آثار للغة الجعزية في هذا الدور. والخطوط في هذين الدورين كانت تكتب من اليمين إلى الشمال على حسب الخطوط اليمنية القديمة.

ج- أما الدور الثالث فهو دور الخصائص الواضحة والابتكار المشكور في اللغة ورسومها وذلك أن بعض اللغات عند ما تتغير الدلالة منها بتغير الحركات فأنها إما أن تعمد إلى وضع حركات كاملة على الحروف كاللغات السامية الآن، وإما أن تضع حروفا من بنية الكلمة تدل بها على الحركات المختلفة وذلك كاللغات والخطوط الآرية جميعها.

ولكن الحبش عندما تحضرت لغتهم وتعقدت مناصي التعبير منها عمدوا إلى الجمع بين طريقتي السامين والآريين فوضعوا حروفا صوتية لتدل بها على الحركات المختلفة ولكنها لم تدخلها في صلب الكلمة وبنائها كما فعل الآريون.

ومن غريب الأمر أنك تجد الخط في هذا الدور الراقي قد غير اتجاهه الطبيعي كباقي الخطوط السامية بل سار من الشمال إلى اليمين على طريقة الآريين.

وهذا الدور هو الذي خلط الأمر على بعض المؤرخين فزعموا أن خطوط الحبشان مأخوذة من الخط الآري والحركات اليونانية القديمة.

وتعد (أقسوم) هي الحاضرة المدنية لدولة الجعزيين ولغتهم آلافا من

السنين وفي أطلالها تجد الكنوز الدفينة من آثار اللغة والأدب والدين لها في نفوس الناس هناك من القداسة ما يجعلها تحس أعمق الإحساس أنها مدفوعة لذلك بدافع من الحنين إلى مقرر فات هؤلاء الأجداد. وهذا ما حال بين المكتشفين أن تصل أيديهم إلى مخلفاتهم المقدسة إلى الآن.

وبعد أن ظلت لتلك الأسرة الحاكمة وللغتها القداسة الدينية قرونا- متطاولة تألفت جماعة من الثائرين ووثبوا على العرش وأقصوا الأسرة الحاكمة ونشروا لغتهم من الجهات والقبائل وعرفت لغتهم باسم اللغة الامحارية وزعموا أنهم من نسل سليمان بن داود وأمهم ملكة سبأ. وبتغلب الامحارية على الجعزية أخذت الأولي تستفيض على ألسنة الناس في التخاطب والمعاملات العامة وانزوت الثانية بين المؤلفين وعلماء الدين ورجال الدولة الرسميين في البيع والكنائس. وبتغلب الامحارية علي الجغرية خوى نجم الحضارة وصحوت أركان المدنية وأطبق الجهل بجيوشه على العقول وحدثت في الأفكار رجة ذهنية أشبه ما تكون عندما استولى برابرة الألمان على الدولة الرومانية الغربية، وعندما استولى التتر والمغول علي بني العباس.

وما زالت الامحارية تتغلب على باقي القبائل والشعوب الحامية حتى أصبح لها السلطان على كل هذه البلاد وتدخلت شيئا فشيئا في الدواوين والمكاتبات حتى جاءت البعثات المسيحية في السنوات الأخيرة فترجمت الكتب الدينية المقدسة وآثار العلم القديم إلى اللغة الامحارية ليستطيع أفراد الشعب أن يقفوا على تفاسير الدين والعلوم بأنفسهم وبلغتهم التي يتخاطبون بها ولقد كان في هذا القضاء المبرم على ما كان للغة الجعزية من

آمال في الحياة والوجود.

ولا تزال اللغة الإمحارية هي اللغة الرسمية إلى اليوم ويتصدر الصحف والمجلات والكتب الدينية وأنواع الآداب واللغة.

ومما تقدم نرى أن الامحارية خليط من الجعزية السامية والحامية البربرية وألفاظ غيرهما من اللغات الأخرى التي دخلتها كالعبرية والسريانية واليونانية. ولتغلب مفردات اللغات الأخيرة لا نري أثرا للحروف الحلقية التي هي من خصائص اللغات السامية. وعلى أنقاض المدنية الجعزية اليوم تقوم قبيلتان كبيرتان تعتنقان الديانة الإسلامية وتتحادثان بلهجة تقرب في أوضاعها من اللهجة الجعزية القديمة يشبوها كثير من المفردات العربية التي دخلت إليهم من الدين الإسلامي والقرآن الكريم والحديث الشريف لإقامة شعائر الدين ورسومه هناك باللغة العربية.

وهاتان المقاطعتان هما اللتان وقفتا في وجه إلامحاربة، ولم تستطيع أن تتغلب عليهما إلى الآن وتعرفان باللغة التجرينية والتجرانية وهناك مدينة (هرر) يسكنها العرب وتجد في لغتها أحرف الحلق واضحة.

الباب الثامن

اللغة العربية

تستفيض اللغة العربية الآن استفاضة لم يشهد لها التاريخ مثلا في أدوارها التي مرت عليها ، إذ يتحدث بها الآن ملايين البشر الذين ينتشرون في بقاع المعمورة التي لها صلة بالعربية أو الديانة الإسلامية.

وهذه اللغة التي يتحدث بها هذا المجموع من الناس إنما ترجع في تكونها ونشأتها إلى اللغة المصرية التي تهذيب وانتقي منها ما وافق الحياة والنمو الطبيعي للغة وآدابها.

وهذه اللغة جمعت من لغات ولهجات شتي كانت منتشرة في وسط الجزيرة وجنوبيها وشماليها وخاصة من القبائل العدنانية التي كانت نقطن الحجاز، ونجدا، وبادية الجزيرة كقبائل، تميم، وربيعة، ومضر وقيس، وهذيل.... على اختلاف في درجة قربها أو بعدها عن اللهجات المصرية الخالصة التي كان لها شأن كبير في القرون المتأخرة قبيل الهجرة كعليا هوازن وسفلي تميم وغيرهما من فصحاء العرب وبلغاء نجد.

ولو أن الرواة تركوا لنا آثارا تدلنا على مبلغ الامتزاج بين هذه اللهجات -كما فعلوا في العصر الإسلامي حيث دونوا كل ما يتعلق بالألفاظ وتاريخها واشتقاقها والدخيل فيها- لاستطعنا أن ندرك مدى هذا الامتزاج وأي لسان من هذه الألسن كانت له الخطوة الكبرى في هذا التراث.

ولكن الجاهلين ما كانوا أهل كتاب وتدوين ، لأن شظف العيش وتجهم الصحراء لم يدعا لهم متسعا من الوقت يركنون فيه إلى رفاهية العقل وتفنن الحضارة. ولو أنهم فعلو كما فعل اليونان القدماء عندما ألفوا إلياذة هومير لأدركنا كما أدرك اليونان مبلغ التأثر والتدرج في عبارات اللغة وألفاظها بالمقارنة والموازنة... وكل ما أثر عنهم في ذلك إنما هو بعض نقوش وجدوها في منطقة حوران بالشام وهي لأمرئ القيس حوالي القرن الخامس الميلادي وهي لهجة عربية ترضخ لكنه آرامية كانت شائعة في هذه البلاد.

ولغة مضر هذه أو لهجة أهل مكة التي وصلت إلينا إنما هي تهذيب عام لعبارات مختلفة من لغات متباينة وذلك أن أهل مكة عام وقريشا خاصة كانوا أهل تجارة وسفر فكانوا يذهبون إلى الشام والعراق ومصر واليمن والعجم والهند والرومان.... وكان طبيعيا أن يحصل الامتزاج والتجاوب بألفاظ متداولة يتفهمها الجميع وتسير في أعطاف كل لغة فاكتسبت اللغة العربية من ذلك شيئا كثيرًا فضلا عما كان لأهلها من الحفاوة في بلادهم حيث كانت قبائل العرب تتوافد على البيت الحرام لمشاهدة المجتمعات العربية والأندية الأدبية في أسواقها العامة فكان كل شاعر أو خطيب يحرص أن تكون لغته وألفاظه مما تستسيغها الأوتار القرشية حتى يكون ذكره أشيع وفضله لأنية فأصبحت اللغة المضربة على بعدها من اللهجة السامية الأولي تحوى هذه الرطانات التي أخذتها من اللغات المختلفة فرواها عنها الإسلام وعلماؤه وبها نزل القرآن فحافظ عليها المسلمون في بقاع الأرض.

وللمصريين طريقة خاصة في تعريب الألفاظ الدخيلة وذلك أنهم يصبغونها بالصبغة العربية ويجرون عليها قوانين لغتهم وقواعد تصريفها حتى لا يشك من يأتي بعدهم ممن لم يطلع على تاريخ اللغة أن هذه الالفاظ عربية محضه، ولهذا ضل كثير من العلماء في البحث عن عناصر اللغة المصرية وإرجاع كل عنصر منها إلى جهته التي نبع منها فلم يرجعوا من هذا البحث بطائل.

وقد اهتدوا في السنوات الأخيرة إلى وضع حدود تقريبية توضح لنا معظم الألفاظ الدخيلة بعد ما درسوا تاريخ اللغة درسا مستفيضا من أحوال العرب الاجتماعية والعلمية والدينية.... وإليك نتيجة أبحاثهم.

كل لفظة لم يكن مدلولها من اختراع العرب ومألفهم يرجح أن تكون أجنبية فالألفاظ الدينية مثل (المنبر والحواري والبرهان والنفاق....) معظمها من العبرية والحبشية.

والألفاظ التي تدل على الروائح والأطياب مثل "الكافور" "والمسك" و "القرنفل" وأسماء العقاقير والاحجار الكريمة التي كانت تمر ببلاد العرب للتجارة فيها معظم هذه الألفاظ هندي أو فارسي.

أما الدخيل من اللغة الفارسية فحدث عنه ولا حرج حتى إن معظم علماء اللغة إذا أشكل عليهم لفظ عدوه أعجميا فارسيا وذلك ظاهر وطبيعي من الامتزاج التام بين الجنسين العربي والفارسي في عصور تدوين اللغة.

وما دخل اللغة من الألفاظ التي تدل على الآلات العملية مثل القسطاس والبطاقة والقبان والاسطرلاب والقنطار ... فمعظم هذا يوناني أو روماني.

لهذا قال بعض العلماء (كانت الأمة العربية لأول عهدها منحطة ... متأخرة في فنون العلم وضروب العرفان .... فإذا أرادوا الزائد عليه من شأن علمي أو زراعي أو صناعي، أو كان من أدوات الترف والزينة ولم يجدوا له اسما في لغتهم ولم يعرفوه فيما كانوا عليه من نوع مدنيتهم تناولوا اسمه من لغات الأمم المطيفة بهم العريقة في المدنية).

أما أهم اللغات التي تكونت منها لغة مضر أو لسان قريش من لهجات العرب فيرجع إلى أصلين هامين: لغة قدماء اليمن ولغة الحجاز وقد كانا يختلفان قديما كل الاختلاف في مفرداتهما وتراكيبها وذوق تصاريفهما.

والعرب تسمي اللهجات اليمانية (المسند) وذلك لكثرة الآثار التي كتبها اليمانيون بالخط المسند الذي كان منتشرا إذ ذاك وأهم

لهجات اليمن

أ- المسند لغة حمير في اليمن، ب- الزبور لغة حضرموت

جـ- الرشق لغة عدن.

د- الحويل لغة مهرة والشحر

هـ- الزقزقة لغة الاشعريين.

لغة اليمن ولغة عدنان

١- الاسم في لغة حمير إما أن يكون متمكنا أمكن، أو متمكنا غير أمكن وعلامة الأول عندهم "م" بدل التنوين في اللغة العدنانية فـ "ملك" يكتب عندهم "م ل ك م" فالميم الأخيرة في محل التنوين عند العرب،

وتحذف للإضافة، فإذا أريد إضافة "سبأ" إلى "ملك" كتب هكذا "م ل ك س ب أ).

٢- العلمية ووزن الفعل تمنعان الاسم من الصرف في لغة حمير كما هي لغة عدنان فمثلا "كلية" علم على قبيلة تمنع من الصرف أي من كتابة الميم في آخرها فتكتب هكذا "ك ل ب ة".

٣- الجمع السالم في لغة حمير يكون الميم (مثل العبرية) والمثني يكون بالنون والياء. فجمع "ملك": "م ل ك م" بإضافة "م" إلى آخره كالاسم المصروف، ومثناه يكتب هكذا "م ل ك ن ي".

٤- اسم الإشارة في لغة حمير "ذ" ويقرأ جوازاً "ذا" أو "ذو" ولا يمكن أن يعرف أصله لأن الواو والألف والياء كثيراً م تحذف من الكلمات الحميرية في الكتابة وقد تلحق باسم الإشارة (ن) تقوية لها.

٥- والمؤنث في الإشارة (ذت)

٦- التعريف ليس مأنوساً في لغة حمير إلا في أزمانهم المتأخرة ولذلك استعملوا (أم) بدل (أل) ومنه الحديث المشهور (ليس من أمبر امصيام في امسفر).

٧- الضمير الماصل في الحميري (هو) (فملك) ملكهو، وضمير المثنى (همى) مثل ملكهمي، والجمع (همو) مثل ملكهمو هذا وقد انقرضت لغة حمير ولم تبق منها إلا لهجات (مهرة والشحر)

وقد بادت هذه اللهجات وفنيت في لغة الحجاز في العصور الإسلامية

الأولى وابتدأ ذلك الاضمحلال من توالي نكبات الأمم على اليمن مثل الحبشان والفرش مما دعا الحجازيين إلى الاستقلال فوجدت لغات مصر وربيعة (عدنان) تربة صالحة أزهرت فيها وأينعت وآتت أكلها حتى غضت من شأن كل لهجة أخرى في جزيرة العرب.

ومن هذا كان العرب يطلقون على لهجات الحجاز (اللسان المبين) وأهم فروعها:

أ- معظم قبائل مصر ولا سيما تميم في شرقي نجد وشمالها.

ب- عطفان (عبس وذبيان) وسليم في نجد.

ج- وأفواهاً جميعاً لغة قريش في مكة وما جاورها.

وإذا نحن نظرنا إلى الأقاليم التي كان يسكنها العرب الجاهليون الذين من لغاتهم تكونت اللهجة العربية المصرية وجدنا أن للبيئة الطبيعية أثراً كبيراً فأهالي الجبال والصحروات صفى ذهناً وأنقى قريحة وأعظم لحين لعرك الكلام الفصيح الجزل من أهل الحضر والمدن والسهل وذلك لتأثير البداوة فيهم بالنشاط والحركة وجودة الذهن وصفاء الحس.

وعلى هذا الأساس يسهل علينا أن ندرك الحكمة في أن الرواة من الصدر الأول قد أجمعوا على أن أبلغ العر ب هم أهل (السروات وهي ثلاثة جبال تشرف على تهامة من أهل نجد) وقد تغني الشعراء قديماً بهذه الباع لبهجة مناظرها وطيب هوائها وشميم عراره وجل هؤلاء من ربيعة منبع الشعر القديم والفصاحة، ومشرق شمس البلاغة العربية.

على حين تجد لأهل الحجاز رقة وغزلاً ولينا في أخلاقهم ودعة في أقوالهم مما جعل لهم مركزاً ممتازاً في الشعر الغزلي في صدر الإسلام.

أما أشهر القبائل فصاحة وذكاء فهي ربيعة التي قرضت الشعر أولاً واستفاض منها إلى باقي القبائل العربية ونحن نخص الشعر بالقول لأنه انجيل العرب ومعرض بيانهم وسجل فصاحتهم وديوان معارفهم وذلك طبيعي في ربيعة لأنها أول القبائل استقلالاً من نير اليمن وعبوديتهم فهم أول من تنفس منهم أريج الحرية فأطلق ذلك من ألسنتهم وأفسح أمامهم القول في الفخر والحروب التي انغمسوا فيها بعد استقلالهم حسداً من عند أنفسهم حتى تأججت القرائح في هذه المعامع الدموية من أيامهم المشهورة.

فولت ربيعة وجهها شطر نجدو أقامت في باديتها الضاحية وهوائها العليل حتى ضاقت عليها الأرض بما رحبت لكثرة عشائرها وتعدد أفخاذها فهاجرت قبيلتنا بكر وتغلب إلى بادية العراق وفيما بين النهرين وأقامتا هناك في عزة ومنعة وأشهر من ولد لها في اليمن قبل الاستقلال (المرقش الأكبر) أما انبه من نبغ فيها في هضبات نجد فهو المهلهل بن ربيعة وبعد أن انتقلت إلى العراق واختلفت عليها المناظر الطبيعية زادها ذلك نمواً في خيالها وخصوبة في أذهانا وسعة في مداركها مما كان له أكبر الأثر في شعرائهم وخطبائهم الذين نبتوا في هذه البلاد وكلهم شاعر فحل وخطيب مصقع.

هذا وأشهر الفصحاء الذين خلدت بهم ربيع على الدهر طرفة ابن العبد والأعشى والحارث بن حلزة وغيرهم.

أما مصر فقد انتقلت إليها البلاغة الشعرية على لسان قيس وهي

قبيلة كانت تسكن عالي الحجاز ونجد وأهم شعرائها وخطبائها النابغتان وزهير ولبيد وقد روى صاحب الأغاني أن (أفصح قيس وأشعرها هم الملقبون من بني عامر والمنسوبون إلى أمهاتهم من غطفان).

ثم سرت الفصاحة إلى تميم وهي قبيل كبير من مضر كان يسكن تهامة ثم نزح بعض بطونه قبيل الهجرة إلى بوادي العراق وكان شاعرها ولسانها أوس بن حجر شاعر مضر في الجاهلية.

من هذه اللهجات الثلاث وغيرها تكونت اللغة المضرية التي نتحدث بها الآن بعد أن هذبتها قريش من شائبة الهنات التي كانت منتشرة في كثير من لغات القبائل.

خصائص لغة العربية

أ- الإعراب: وهو تغير يحدث في أواخر الكلمات لاختلاف العوامل الداخلة عليها، والإعراب صورة قديمة من صور الحياة الأولى يعطي اللغة دقة في التخاطب، وهو عنوان على مجد القوم ومبلغ حرصهم على لغتهم كما أنه عامل مهم من عوامل النمو والارتقاء بما يتفرع عنه من ألوان الصور المختلفة في التراكيب.

واللغات الراقية الآن لا يعني منها بالإعراب سوى العربية والحبشية والألمانية، واللغة العربية في ذلك أقومها سبيلاً لتأصلها من قديم الزمان وسيرها على قواعد وقوانين ثابتة قلما تجاريها في ذلك لغة أخرى.

وبعض المؤرخين يرى أن الإعراب إنما يكون حي الجفاء وقوة العارضة

وسذاجة الحياة وبساطتها وضربوا لذلك أمثلة.

فالبابلية القديمة كانت معربة أيام البداوة والنشوء الاجتماعي، ولما نزح أهلها وخلدوا إلى الرفاهية والنعيم انشأت عنها لهجات غير معربة كالسريانية والكلدانية –ويزعمون أن السلسكريتية (لغة قدماء الهنود) كانت معربة ولكن اللهجات المتفرعة عنها فقدت خصائص الإعراب وكذلك اليونانية القديمة كان فيها شيء من الإعراب، وكذلك اللغة العربية اليوم غير معربة في عامة مصر والشام والعراق وبلاد المغرب مع أنها جمعاء مشتقات من اللغة العربية الفصحى وهي معربة.

ب– دقة التعبير: ويتجلى ذلك في كثرة الأسماء للشيء الواحد الذي يختلف باختلاف الأوقات والأمكنة والحالات، تلك الميزة هو دليل واضح على غنى اللغة وثراء أهلها بأنواع التعابير المختلفة التي تحدد الأشياء تحديداً يقرب من المحسوس واللغة العربية أغنى لغات العالم في ذلك، خذ أي شيء يجول بخاطرك أو يقع تحت حسك وأنت ترى له عشرات الأسماء بل مئاتها وكلها يؤدي معنى لا يقوم به الآخر في عرف اللغة ومتانة أوضاعها.

ودونك الزمن فلكل ساعة لفظ خاص كالذرور والبزوغ والضحى والغزالة والهاجرة والزوال والعصر والأصيل والصبوب والجدور والغروب والعتمة والعشى ...

ودونك الشعر له في كل مكان يحل به لفظ خاص كالفروة والناصية والذؤابة والفرع والغديرة مما تجد أكثره في كتب اللغة.

وللقمر والمرأة والغلام ألفاظ بحسب أعمارهم وهكذا مما يحير الألباب ويدهش العقول.

ناهيك بالألفاظ الدالة على العواطف وخلجات القلوب مما لم تتعرض له إلا أغنى اللغات كالعربية فللحب وحده أكثر من خمسة عشر لفظاً وللبغض والحسد والطمع والشره مثل ذلك.

(ج) الإيجاز والأعجاز: وهي صاحبة القدح المعلي في ذلك لكثرة ألفاظها الموجزة التي تدل على المعاني الجمة؛ ولأنها في ثروة طائلة من التشبيهات والاستعارات وضرب الأمثال والكنايات والتلميحات والألغاز والإشارات والتورية مما يدل على امتلاك ناصية البلاغة وبلوغ الشأو الأكبر في الذكاء وقوة التعبير ومنه دلالة اللفظ الواحد على عدة معاني مختلفة تتوارد على الذهن عند سماع اللفظ والقرينة وحدها هي التي تعين المعنى المقصود.

فلديك للخال ما يزيد على ٢٠ معنى وللعين ما يزيد على ٣٠ معنى وللعجوز مثل ذلك وهكذا القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب الفقه والآداب ففيها الأمثلة لذلك ومن هنا كانت مراتب البلاغة تتفاوت على قدر ذلك.

(د) المترادفات: واللغة العربية أوسع اللغات في مفرداتها ويظهر أن تلك الكثرة نشأت من أن بعض هذه الأسماء كانت صفات ثم دونت في العصور الإسلامية على أنها أسماء لا أوصاف أو أن هذه الأسماء كانت لقبائل مختلفة ولما جمعت اللغة لم يذكر لنا الرواة مصدر كل لفظ، ولسان

كل قبيلة فاختلط الأمر على الباحثين ولم يهتدوا إلى أغراضهم، وقد تقدم غير واحد من أئمة اللغة وأرادوا أن يحددوا هذه الأسماء من أوصافها فخطوا خطوات مباركة كابن جني في خصائصه وأحمد فارس وغيرها من علماء اللغة ....

(هـ) السجع: اللغة العربية أغنى اللغات في مفرداتها ولهذا تستجيب للشاعر القوافي المتشابه فيملك عنانها ويحدوها إلى حيث يشاء من غير سآمة أو ضجر كالمطولات من القصائد والمقالات المختلفة التي تلتزم سجعات واحدة بحرف واحد وبعضهم قد غالى في ذلك السبيل والتزم (لزوم ما لا يلزم) في قصيدة أو قصائد عدة دلالة على تمكنه من اللغة وتملكه زمام التعبير فيها كالمعري وغيره فجاءت عباراتهم غاية في الجودة ومتانة التركيب وهذا ما لا تجد له نظيره في لغة أخرى، وقد راض شاعر ألماني لغته في ذلك فلم تستجب له إلا أسطراً معدودة ريثما نفذت كلمات اللغة في ذلك المعني، أما في العربية فإن بحر المعاني ينفذ قبل أن تنفد كلماتها ولو جئنا بمثله مدداً!

الباب التاسع

اللغات الحامية

اللغات الحامية ثلاثة أقسام:

(أ) لسان البربر

(ب) لسان قدماء مصر

(ج) لسان الكوشيين.

(أ) البربر: مسكنهم شمالي إفريقيا وواحة سيوة، وتجد في لغتهم شبهاً من مفردات اللغة العربية ولا سيما ما يتعلق منها بالبناء لأنهم أخذوا ذلك عن العرب، والعرب قديماً ترميهم بالجفاء والانحطاط.

هذا وقد ترجم القرآن إلى لغتهم البربرية في القرن الثاني الهجري، وأخرجت الكتب الفقهية وكتب الحديث إلى البربرية أيام دولة (الموحدين) ولكن هذه الترجمات أصبحت رطانات لا تتفق وجلال الكتب الدينية مما دعا كثيراً من أهل الغيرة على الدين أن يبيدوا هذه الكتب ويحتموا دراسة الدين من الكتب العربية باللسان العربي المبين ولا تزال هذه السنة متبعة إلى وقتنا هذا.

(ب) قدماء مصر: كان يسكن وادي النيل قوم من الحاميين لا حضارة لهم ولا مدنية قبل أن يفتحه الساميون، ولما كانوا أرقى مدنية وأوفر حظاً من القوة غزوهم في عقائدهم ولغتهم وعوائدهم كما غزوهم في

بلادهم وحرياتهم فنشأ عن ذلك لسان هو إلى السامي "كالعربي والعبري" أقرب منه إلى الحامي "كالبربر وسكان سيوة"، وظل هذا مستعملاً إلى حوالي القرن الأول للمسيح وآثار هذا العهد كلها معروفة باللغة "الهيروغليفية".

وبعد ذلك نشأت لهجة تسمى القبطية وهي معربة عن لفظ "اجبتس" اليوناني الذي كان يراد به سكان وادي النيل.

هذا وقد وضعت كتب جليلة بهذا اللسان الجليل ومعظمها من كتب النصارى كالتوراة والإنجيل ... وهي منقولة من اليونانية.

(ج) الكوشيون: هي لهجة حامية يتكلم بها القاطنون في الشمال الشرقي لإفريقيا وهم: "بجة" في جنوب النوبة "وسوهو" جنوبي مصوع، ثم (الآغو) وهم الحبشان القدماء والصومال ... وهم لا يميلون إلى التأدب والعلوم وإذا ما أرادوا كتابة حرروها باللغة العربية كأهل النوبة.

المراجع

١- محاضرات الدكتور العناني بدار العلوم.
٢- محاضرات السنيورجويدي بالجامعة المصرية.
٣- تاريخ اللغات السامية للدكتور ولفنسن
٤- تاريخ اللغة العربية وآدابها لجرجي زيدان
٥- تاريخ الإسرائيلينلمكاريوس بك
٦- تاريخ المذاهب الفلسفية للدكتور العناني
٧- فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين
٨- العلم والدين لإسماعيل مظهر بك
٩- الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين
١٠- مجلات (الكلية، والهلال، والمعرفة)
١١- الكتاب المقدس
١٢- عصر المأمون لرفاعي بك
١٣- فلاسفة الإسلام للأستاذ لطفي جمعه
١٤- فقه اللغة للأستاذ الأسكندري
١٥- الكنزي لمجد بك بدر

الفهرس